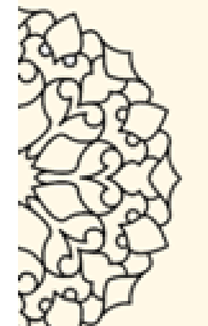


مجلة ليكسوس

في التاريخ والعلوم الانسانية

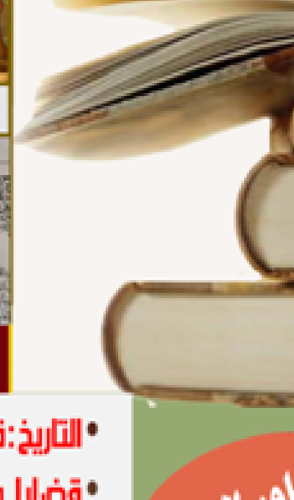
مجلة الكترونية علمية متخصصة

أسست بمبادرة من مجموعة من الباحثين المغاربة

العدد السابع - نونبر 2016

المساهمون في هذا العدد:

- خالد الصقلي
- عمر عمالكي
- خالد أوعسو
- أحمد العثماني
- محمد أبيهي
- عبد الحكيم الزاوي
- نور الدين أغوثان
- عبد الله النملي
- امبارك أيت عمر
- وليد موحن
- يونس كبزيز

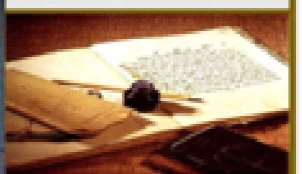


التاريخ البحري

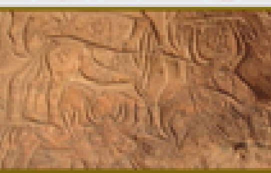
تاريخ الجنوب المغربي



قضايا مناهج التاريخ



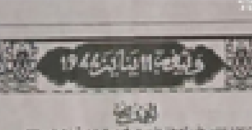
تاريخ النقوش بدرعا



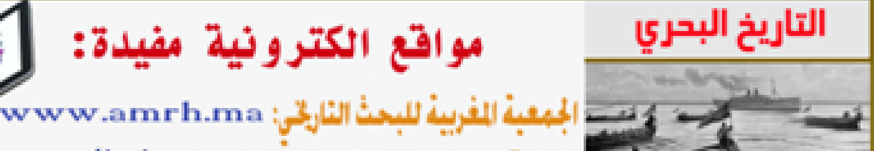
تاريخ الحرف



من تاريخ العمل الوطني



مواقع الكترونية مفيدة:



الجمعية المغربية للبحث التاريخي: www.amrh.ma

موقع الاستقصا: www.alistiqsa.com

بوابة تاريخ المغرب: www.maroc-histoire.net

ضمن هذا العدد

- التاريخ والذاكرة: حفريات في الذات المغربية المقهورة بلون السياسة.
- التأثيرات الحضرية العثمانية على المغرب خلال القرن ١٦م

صورة العدد

محمد بركاش وزير الشؤون البرانية في مؤتمر مدريد ١٨٨٠م

www.maroc-histoire.net lixus@maroc-histoire.com

محاور العدد



- التاريخ: قضايا وإشكالات . أصول الثقافة البحرية المغربية . تاريخ الحرف بمدينة أسفي
- قضايا مناهج التاريخ . العلاقات المغربية العثمانية . النقوش الصخرية بدرعة العليا . حملة عقبة بن نافع الفهري على بلاد المغرب . قراءة في كتاب البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب . التضامن بين المغاربة من خلال وثيقة ١١ يناير ١٩٤٤م . التقاليد والنعراف الرباطية

المدير المسؤول: محمد أبيهي









جامعة سيدي محمد بن عبد الله
الكلية متعددة التخصصات بتازة

مختبر البحث في العلاقات الثقافية المغربية المتوسطية
فريق البحث في مجتمع الغرب الإسلامي

التاريخ وأدب التراجم

مباحث في المفهوم والمنهج والقضايا



تنسيق

محمد البركة أحمد إيشرخان

بيير بارون

تطويع الأهالي زمن الاستعمار الفرنسي مغرب (1912-1939)

ترجمة وتقديم عبدالرزاق لكريـــط

2016

الدكتور المصطفى الريس

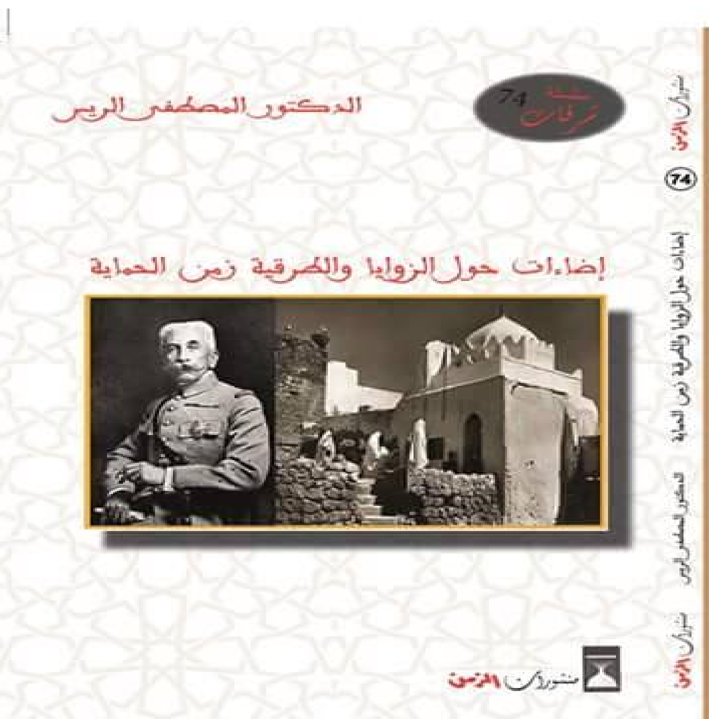
إضاءات حول الزوايا والطرقية زمن الحماية

يندرج هذا الاصدار ضمن قائمة الدراسات والأبحاث التي تتوخى تسليط الأضواء الكاشفة على المسارات التاريخية لمؤسسة" الزوايا "، وتوسيع دائرة النقاش في صفوف الدارسين والباحثين والمهتمين الذين يحملون هم الاشتغال على قضايا وإشكاليات فترة الحماية بالمغرب،التي لا تخلو من تعقيد ومن تضارب في الرؤى والمواقف، وتستوجب المزيد من التنقيب والتمحيص. لم تكن مؤسسة "الزوايا" خارج عن سياق التحولات الجوهرية التي مست المغرب وغيرت العديد من مظاهره زمن الحماية، بل كانت فاعلة فيها، وكان شيوخها من صناع أحداث ووقائع تلك الفترة التي كانت مشحونة بالصراعات، الخفي منها والمعلن، بين أطراف متعددة ومتداخلة.

يكشف هذا المؤلف عن مواقف المهادنة لبعض الطرق الصوفية التي تحولت إلى وسيط لتسهيل عملية التغلغل الاستعماري، تحذوها رغبة الحفاظ على امتيازاتها ونفوذ شيوخها السياسي والديني. وعن موقف الحركة الوطنية المتناغم مع الموقف السلطاني التواق إلى الحد من نفوذ الزوايا وإقصائها من المجال السياسي العام واجتثاثها من جذورها الاجتماعية والمجالية. ثم رغبةالإقامة العامة في توظيف نفوذ الزوايا ضد الحركة الوطنية والتيار السلفي والسلطان، وخلق واقع جديد تميز بالصراع بين الطرفين والوطنيين وصل إلى حدود التصفية الجسدية.

المؤلف

منشورات الزمن



الطاقم العلمي لمجلة ليكسوس الالكترونية:



فهرس محتويات المجلة

كلمة الافتتاح:

يسعد طاقم مجلة ليكسوس الالكترونية أن يضع بين يدي القارئ الكريم العدد الرابع من هذه المجلة الالكترونية الفتية، وأدرجت المجلة في هذا العدد ثلة من المواضيع المختلفة، وقد أسهم في اغناء محتوياتها باحثين من المغرب وخارجه،وهذا يعكس انفتاح مجلة ليكسوس على كل الباحثين بالمغرب وخارجه، وذلك لهدف تثمين التبادل المعرفي والعلمي بين الباحثين،وإيمانا من المجلة بضرورة ربط أواصر التعاون وتبادل الخبرات بين المهتمين في مختلف تخصصات العلوم الإنسانية، لتكون رافدا ومرجعا علميا للطلاب والباحثين بالمغرب وخارجه.

وأملنا جميعا أن تكون هذه المساهمات العلمية إضافة ببيلوغرافية نوعية للقارئ الكريم، لتسليط الضوء عن بعض القضايا التاريخية، وكلنا أمل أن تكبر مجلة ليكسوس الالكترونية بفضل تفاعلكم معنا قراء وكتابا، وذلك لنشر المعرفة التاريخية على نطاق واسع، وننتظر مساهماتكم ومقالاتكم لاغناء هذا المشروع التاريخي الالكتروني، لكي يكون منارة وقنطرة للباحثين والتعريف بانتاجاتهم التاريخية. وفي الختام نشكر كل من ساهم في إثراء العدد الرابع من مجلة ليكسوس، وموعدنا سيتجدد إن شاء الله في العدد الخامس من هذا المولود الالكتروني الجديد ، ليواصل إصداراته الالكترونية لتعم الفائدة جميع المهتمين بالمعرفة التاريخية داخل وخارج المغرب.

طاقم مجلة ليكسوس الالكترونية

تاريخ الحركة الوطنية





التضامن بين المغاربة من خلال وثيقة 11 يناير 1944م



خالد الصقلي
أستاذ باحث في كلية الآداب ـ ظهر المهراز ـ فاس

مقدمة تعريفية:

إن إحياء ذكرى 11 يناير 1944 يندرج ضمن مبدأ عام وهو جعل تاريخ الأمة المغربية حيا في النفوس، وإحياء هذه الذكرى هو تقديم المثال للذين أخلصوا لهذه الأمة، وبذلوا الغالي والنفيس من أجل عزتها ورفعة شأنها، وهو كذلك اعتناء وحفظ لأصالة أمتنا ووفاء للتاريخ وأداء للأمانة في أعناقنا، وهذا يتفق مع روح ونصوص وأهداف القرآن الكريم، إذ نجد آياته الكريمة تحدثنا عن الأمم السابقة حتى يتفكر فيها الناس وحتى يأخذوا منها العبرة والعظة:"(...)ذلك مثل القوم الذين كذبوا بئاياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون"([1]) ، ولعل من أهم القضايا التي يعتمد عليها في مفهوم التاريخ المعاصر هذا المسار الخطي لأحداث

[1]) سورة الأعراف، الآية: **176**

التاريخ، وهذا يعني عدم تكرار تلك الأحداث عبر التاريخ لأن الذي يمضي لا يعود، وهذا يعطي القيمة والأهمية التاريخية المتفردة لكل حدث تاريخي لأنه لا يتكرر، فالتاريخ لا يعيد نفسه بدليل قوله سبحانه و تعالى" :كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون"([2])لذلك فإن قراءتنا لأحداث ذكرى وثيقة الإستقلال هي قراءة في الواقعية التاريخية المغربية المتفردة و المنغرسة الجذور في ذاكرتنا الوطنية([3]).

المحور الأول:الوضعية بالمغرب قبل تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال:

إن الحديث هنا ياخذنا للوقوف عند مرحلة مهمة من تاريخ المغرب المعاصر، والمتمثلة في تقديم وثيقة الاستقلال في 11 يناير 1944، وهو الأمر الذي يستوجب بالضرورة أخذ فكرة عن حالة المغرب آنذاك.فقد عملت جميع القوى الأوربية على إضعاف البلاد ونخر جسدها عن طريق الاتفاقيات الثنائية والمساومات الدبلوماسية التي عقدتها فرنسا مع مختلف منافسيها، ابتداء من بداية القرن العشرين مرورا بمؤتمر الجزيرة الخضراء في العام 1906، حيث تم فيها إطلاق يد كل من فرنسا وإسبانيا للتحكم في مصير المغرب. بعد أن تمت قنبلة مدينة الدار البيضاء واحتلال وجدة في العام 1907.

لقد شكل فرض توقيع عقد الحماية على السلطان مولاي عبد الحفيظ في 30 مارس 1912، نهاية مرحلة طويلة من تاريخ المغرب المستقل، لانه دخل مرحلة لم تكن هزيمة في معركة أو حرب أو احتلال ثغر، بل مرحلة فقدان استقلال البلاد كلها، وقد ولد هذا الإحساس لدى المغاربة، شعورا قويا بالانتماء إلى هذا الوطن فهبت كل شرائح المجتمع المغربي قاطبة للمقاومة، اذ قدم الشيخ ماء العينين بالصحراء المغربية وموحا أوحمو الزياني وباسلام بالأطلس المتوسط في معركة الهري عام 1914 وعبد الكريم الخطابي في معركة أنوال عام 1921 بالريف([4])، أعظم صور من صور المقاومة المغربية الشريفة التي أعطت دروسا بليغة في معنى التشبث بالوطن، وقد استمرت تلك المقاومة المسلحة في مجموع التراب المغربي من

---

[2])سورة يس، الآية: 30

[3])انظر:عبد الله هيتوت،"في ذكرى تقديم وثيقة الاستقلال"،ميثاق الرابطة،العدد4،2011/1/32.–"الذكرى ال 65 لتقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال" نشر في جريدة العلم(المغربية) 12 – 01 – 2009.

[4])انظر:– جرمان عياش،اصول حرب الريف،مطبعة النجاح الجديدة،1992.– محمد العلمي،زعيم الريف محمد عبد الكريم الخطابي،نشر الشركة العالمية للكتاب، 1900.

جبال الريف في الشمال والأطلس المتوسط والأطلس الكبير، التي استمرت فيه المقاومة إلى حدود 1935 وناحية تافيلالت والصحراء المغربية، وقد واكب هذه المقاومة، انتفاضات وإضرابات داخل المدن كالرباط وسلا والجديدة والصويرة في العام 1920.

لقد عرفت فترة منتصف عشرينات القرن الماضي نشأة الحركة الوطنية، والتي تبلورت كحركة في بداية الثلاثينيات واكب ذلك تطور في طرق عملها وفي مطالبها، وقد ساهمت مساهمة فعالة في تحقيق المغرب لاستقلاله، وقد تكونت الحركة الوطنية في البداية من شباب مغاربة متحمسين من مختلف المناطق المغربية ،درس بعضهم في المدارس المغربية كجامعة القرويين، والبعض الآخر في جامعات غربية. واتسمت الوضعية السياسية بالمغرب والتي أفرزت تأسيس الحركة الوطنية بتراجع المقاومة المسلحة، والاستغلال الاستعماري البشع للمغرب وأثره على المجتمع المغربي، و ظهور الحركة السلفية ودورها في تأطير الحركة الوطنية، باعتبارها نهضة فكرية عملت على تحرير العقل المغربي من التخلف الفكري وسيطرة الخرافة والعودة إلى المنابع والأصول الأولى للدين الإسلامي الحنيف، وكان من بين روادها محمد بن العربي العلوي (1880-1964)، وأبو شعيب الدكالي(1878-1937)، وقد كان دور الحركة السلفية كبيرا في زرع دم جديد لدى المغاربة بمختلف شعابهم، بعد الانكسارات التي منيت بها المقاومة المغربية خصوصا في الأطلس والريف. فقد أعادت لهم هذه الحركة الثقة بالنفس باعتبار أن الإسلام هو المنبع الأصيل الذي نهل منه المغاربة قاطبة قدرتهم على مواجهة التحديات التي كانت تجابههم عبر التاريخ، وفي هذا الاطار يقول علال الفاسي:"ليس من الممكن لمؤرخ الحركة الاستقلالية بالمغرب ان يتجاهل هذه المرحلة العظيمة ذات الاثر الفعال في تطوير العقلية الشعبية بلادنا"([5]) .إضافة إلى الظهير البربري الذي تم إصداره من قبل سلطات الحماية يوم 16 مايو1930 ، والذي كان يهدف إلى التفريق بين المغاربة وذلك بخلق شرخ بينهم في محاولة لضرب وتفتيت أسس وحدة المغاربة التي تشبثوا بها منذ قرون خلت ،لكن المغاربة بربرا وعربا... أفشلوه باتحادهم وتضامنهم، ويتبين ذلك لنا بوضح من خلال ما رد في الكتابات الوطنية التي أرخت للحدث، وفي هذا الإطار يقول عبد الكريم غلاب:"... عاد معنى الأمة الواحدة والشعب الواحد ليحتل تفكير الطبقة المتحركة في البلاد من مثقفين وطلبة وتجار وصناع، ولأول مرة في التاريخ – بعد الدعوة الإسلامية - توحد حركة

---

[5]انظر:علال الفاسي، الحركات الاستقلالية بالمغرب العربي،مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، **1992**، ص**153**.



وطنية فكرية الأمة ، وتبعث الوحدة الوطنية لا بالقوة والسيف كما كان الأمر شعار الحكم الذي يواجه القبائل الثائرة ، ولكن بالفكرة الوطنية وبذلك حل الوطن مكان القبيلة وحلت الوطنية مكان العرف ، ولأول مرة تجرا الوطنيون ليقوموا بعمل جماعي ضد الدارة الفرنسية وليواجهوها بالعصيان و المظاهرة والإضراب في مدن مقفلة مطوقة، ولأول مرة تلتقي الجماعات العاملة في المدن حول فكرة واحدة تجهر بها وكأنها اكتشفت ماكانت تبحث عنه طول مدة التعبئة النفسية التي كان يشعر بها الشباب في المدن أثناء العشرينات(...)"([6]) .

لقد عمل المغاربة جميعهم على التصدي لهذا الظهير في كتلة واحدة فجهروا باللطيف في صيغته المعروفة:"اللهم يا لطيف نسألك اللطف في ما جرت به المقادير وان لا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر" بداية في مدينة سلا لتنطلق المظاهرات والاحتجاجات إلى باقي المدن والقرى المغربية التي خرجت لتعبر عن الوحدة الوطنية المغربية، فتكون وفد سافر في 26 غشت 1930 إلى الرباط حاملا معه مجموعة من المطالب. وقد تم استقباله من قبل السلطان سيدي محمد بن يوسف طيب الله ثراه، الذي عبر عن أسفه ودعمه لجميع مطالب الشعب المغربي. وهكذا اعتبرت الحركة البربرية بداية النهاية للاستعمار بالمغرب، كما انها كانت دعامة للحركة الوطنية لتتخذ شكلها النهائي كحركة سياسية تستند على قاعدة شعبية متحدة متضامنة قادرة على الوقوف وجها لوجه ضد الاستعمار ومواصلة عملها ([7]) .

وعموما فقد كان للظهير البربري، دور مهم في جمع شمل المغاربة واتحادهم وتضامنهم، وأعطى صورة نموذجية من صور التلاحم والتضامن المغربي، فكان ذلك الدرس بمثابة إنذار لسلطات الحماية التي زادت من قوتها القمعية، خصوصا أنها كانت تدرك أن مطالبة المغاربة بالإصلاحات لم تكن سوى بداية للمطالبة بالاستقلال، علما أن رواد الحركة الوطنية بدأوا في 8 مايو 1934، بالاتصال بالسلطان للتنسيق معه، خصوصا أن دورهم كان مهما في الاحتفال بأول عيد عرش في تاريخ المغرب في 18 نونبر 1933. ولا يمكن نسيان ما قام بها المغاربة في

---

[6] انظر:عبد الكريم غلاب،تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية حتى اعلان الاستقلال،مطبعة النشر،البيضاء، ج**1**،ص**194**–**195**.

[7] انظر كتاب الحاج بوعياد الحسن،الحركة الوطنية و الظهير البربري لون اخر من نشاط الحركة الوطنية، الدار البيضاء، **1979**. ص**13**–**16** وما بعدها..

الشمال من ردود فعل قوية تبلورت في عمل سياسي ضد الاستعمار الإسباني([8]) ،وزاد ذلك من التمازج والانسجام والاتحاد بين شمال المغرب وجنوبه، وبين جميع شرائح الشعب المغربي. حيث عملت الكتلة الوطنية على تقديم عريضة لحكومة الجمهورية الإسبانية، ضمنتها مجموعة من المطالب، لكن الجمهوريين الذين كانوا قد وصلوا إلى الحكم آنذاك ولكنهم ردوا على تلك المطالب المغربية بالعنف، خصوصا بمدينة تطوان .

إن النضج الذي وصلت إليه الحركة الوطنية المغربية عبر مجموع التراب الوطني دفع المغاربة عامة بكل مشاربهم بالانتقال من مجرد المطالبة بالإصلاحات إلى المطالبة بالاستقلال، حيث ساهمت مجموعة من الظروف المؤثرة في تطوير تلك المطالب والتي يمكن تلخيصها في :

- تعرض بعض قادة الحركة الوطنية في نهاية الثلاثينات للاعتقال أو النفي،وخاصة بعد أحداث بوفكران سنة1937 والتي نتجت عن تحويل المعمرين لمياه النهر لأراضيهم.

- تأسيس أحزاب جديدة منها حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال و"حزب الوحدة المغربية"و"حزب الإصلاح الوطني" و"الحزب الشيوعي ."، كما تم إصدار العديد من الجرائد والمجلات أبرزها : جريدة "عمل الشعب" والتي كان يديرها الوزاني و"المغرب" لأحمد بلافريج و"الحياة "للطريس...، فضلا عن إنشاء المدارس الحرة وتأسيس الجمعيات الثقافية والعلمية([9]).
- عقد لقاء آنفا في يناير 1943، الذي كان فرصة للقاء بين السلطان سيدي محمد بن يوسف والرئيس الأمريكي روزفلت حيث عرض السلطان مطالب المغرب المشروعة.
- تقديم أعضاء الحركة الوطنية وثيقة يوم 11 يناير1944، التي طالبوا فيها باستقلال المغرب ووحدة ترابه،علما أن السلطان سيدي محمد بن يوسف كان مطلعا على مضامين الوثيقة، بعد الاتصالات السرية التي كانت بينه وبين الوطنيين، وقد عبر جلالته عن حماسه وموافقته عليها،

---

[8]انظر:ميكل مارتن،الاستعمار الاسباني في المغرب،مطبعة النجاح الجديدة ، البيضاء،1988.

[9]انظر:عبد الكريم غلاب،تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية حتى اعلان الاستقلال،م.س،ج1،ص35.



وتم تحديد موعد تقديمها صباح يوم 11 يناير 1944. وكان رد سلطات الحماية الفرنسية بشن حملة اعتقالات بعد أيام من تقديم الوثيقة.([10])

هكذا اذا، مُهدت الطريق امام حزب الاستقلال،لتقديم "عريضة المطالبة بالاستقلال" يوم 11 يناير 1944، بعد عشر سنوات من تقديم "مطالب الشعب المغربي"، لتكرس هذه الوثيقة التاريخية نهج المساوات بآفاقها و ملامحها لا محدودة ومبدا التضامن بين العرش والشعب والشعب فيما بينه، و ظل التاكيد قائما في كل وقت على انه لا فرق بين المغاربة وذلك مرتبط بعقلية المغاربة المترسخة في وحدته وكينونته واتحاده وتضامنه من شماله لجنوبه ومن شرقه الى غربه.

المحو الثاني: تقديم الوثيقة:

إنها محطة تاريخية من تاريخ المغرب الحديث، تلك التي جسدت على أرض الواقع طموحات جيل الحركة الوطنية الذي توج نضاله ب "وثيقة المطالبة بالاستقلال"التي قدمت يوم الثلاثاء 14 محرم 1363هـ/11 يناير 1944 على الشكل التالي:

- 1:وفد قدم الوثيقة إلى السلطان جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه هم السادة:احمد بلا فريج ومحمد اليزيدي وعبد العزيز ابن إدريس والهاشمي الفيلالي وعبد الله إبراهيم وادريس المحمدي وعبد الكريم بنجلون واحمد الحمياني وعبد الحميد الزموري([11]).
- 2:وفد قدم الوثيقة إلى القنصلية الأمريكية هم السادة:المهدي بنبركة([12]) وعبد الرحيم بوعبيد([13]).
- 3:وفد قدم الوثيقة إلى المقيم العام الفرنسي وهم السادة:الحاج عمر بن عبد الجليل ومحمد غازي و محمد الزغاري([14]) ومحمد الديوري([15]).

---

[10]) انظر: محمد السلوي ابو عزام، المقاومة والوجدان : عن الشعب والذات، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1990، ص ص18 وما بعدها.

[11])انظر: – عبد الحق المريني،محمد الخامس،الرباط،1988،ص196–198.. – رشيد ملين محمد، نضال ملك ،المطبعة الملكية، الرباط، ط2، ص252. – محمد بن يوسف او تاريخ استقلال المغرب،دار الكتاب، الرباط، 1975، ص135. – ابو بكر القادري،مذكراتي في الحركة المغربية،ج2،ص183.

[12])كان رئيس جمعية قدماء تلامذة كوليج مولاي يوسف بالرباط، وقد واورد ابو بكر القادري انه كانت هناك ثلاث وفود فقط وتراس الوفد الثالث المهدي بن بركة الذي قدم قدم الوثيقة الى قنصل انجلترا وقنصل الولايات المتحدة الامريكية بالرباط وانظر: ابو بكر القادري،مذكراتي في الحركة الوطنية،مطبعة النجاح الجديدة،1997،ج2،ص181 –186

[13])انظر:وثيقة 11 يناير 1944،عبد السلام البكاري، البوكيلي للطباعة والنشر،ط1، 2005،ص341

❖ 4: وفد قدم الوثيقة إلى القنصلية الانجليزية وهم:الحاج احمد مكوار واحمد باحنيني([16])

و كما لا يخفى على أحد، فقد حررت الوثيقة في بيت الحاج محمد مكوار بفاس، وهندس إنشاءها محمد اليزيدي و أحمد بلافريج، و وقعها ستة و ستون شخصية وطنية مغربية كانت منتمية لمختلف الأوساط الاجتماعية فمنهم الموظفون مع المخزن والعلماء والأطباء والمحامون والأساتذة والإداريون والتجار والصناع والحرفيين ...و مثلوا 14 مدينة مغربية. وفي هذا الاطار ورد في احدى الصحف المغربية:" بين ردهاته حرروا عقدا أعلنوا فيه حبهم الكبير لوطنهم الذي لا يقاس بثمن ولم يفرطوا في أي شبر منه. وأطلقوا وثيقة طالبوا فيها باستقلال المغرب ووحدة ترابه تحت ظل صاحب الجلالة ملك البلاد المرحوم محمد بن يوسف، الذي التمسوا منه السعي لدى الدول التي يهمها الأمر الاعتراف بهذا البلد .وثيقة ومنزل يشهدان على منعرج رائد في تحديد السيادة المغربية، وإعطاء انطلاقة إصلاح ترقبه المغاربة من داخل وطنهم دون حاجة إلى مستعمر نهب الأرض واستعبد العباد، اختاره موقعو العريضة، أن يكون نظاما سياسيا شوريا شبيها بنظام الحكم في البلاد العربية الإسلامية في الشرق.نظام توخى موقعو العريضة ممن سعوا إلى تمتع الدولة المغربية بحريتها وسيادتها الوطنية،)توخوا) أن يحفظ حقوق سائر عناصر الشعب المغربي وطبقاته، ويحدد واجبات الجميع، بغض النظر عن تداعيات القرار السياسي الجريء الذي أعلنه أكثر من 60وطنيا وقع العريضة بمنزل أحمد مكوار .تلك العريضة التي انطلقت شرارتها من هذا المنزل الواقع بموقع إستراتيجي قرب ساحة البطحاء، تعززت بعرائض التأييد من مختلف جهات الوطن التي من آثارها اندلاع انتفاضة 29 يناير 1944 وما رافقها من مظاهرات عارمة سقط إثرها عشرات الشهداء والضحايا بالرباط وفاس وأزروا وسلا.لم يقتصر إشعاع وثيقة المطالبة بالاستقلال التي تعتبر مليكة الفاسي المرأة المغربية الوحيدة التي وقعتها، على الوطن بما كان لها من أثر عميق في نفوس وأوساط المغاربة على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم، بل أرسلت نسخ منها إلى ممثليات الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا والاتحاد السوفياتي .إن غالبية الموقعين على وثيقة المطالبة بالاستقلال، كانوا يمتهنون التجارة بالمدينة العتيقة بفاس، ممن لم يستسيغوا الحريق

---

[14]) الذي كان رئيسا لجمعية قدماء تلامذة ثانوية مولاي ادريس بفاس،وانظر:ابو بكر القادري،مذكراتي في الحركة الوطنية،ج**2**،ص**181**-**185**

[15]) انظر:عبد السلام البكاري،م.س،ص**341**

[16])انظر:-محمد خليل بوخريص، وثيقة التحدي،دار الثقافة ،البيضاء،**1995**،ص**131**. -عبد الكريم غلاب،تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب،م.س،ص**276**-**277**

الانتقامي الذي طال مصدر عيشهم، بمتاجر قيسارية الكفاح في سنة 1955 الذي أدى إلى تشريد أسر العشرات من المقاومين وموقعي وثيقة المطالبة بالاستقلال.هذا الحريق كان مصدرا لتأجيج غضب الوطنيين المغاربة، ممن اجتمع بعضهم بمنزل مكوار لتحرير وتوقيع الوثيقة المذكورة، ردا على ما تعرضوا إليه من استمرار نهب وإقبار ودفن معالم تاريخ الوطن، على غرار اجتماعات تنسيقية أخرى احتضنتها منازل ومحلات تجارية أخرى، لم تنل حظها من الاهتمام."([17])

وقد ركزت هذه الوثيقة على مجموعة من المرتكزات نذكر منها:

- استقلال المغرب في ظل الوحدة الترابية للمملكة؛
- إرساء ملكية دستورية وديمقراطية، تضمن الحريات الفردية والجماعية؛
- المساهمة في الحياة الدولية بشكل يحترم سيادة المغرب؛
- إحداث نظام سياسي شوري شبيه بنظام الحكم في البلاد العربية والإسلامية بالشرق، تحفظ فيه حقوق وواجبات جميع عناصر الشعب المغربي؛
- الدفاع عن الوحدة الاجتماعية والعقدية للمغاربة لإفشال كل المخططات الاستعمارية.

وان القراءة الاولية في وثيقة المطالبة بالاستقلال التي قدمت في يوم 14 محرم 1363هـ/11 يناير 1944م تبرز لنا مجموعة من الملاحظات نذكر منها فقط:

✓ الملاحظة الاولى:ان الوثيقة قدمها عدد من اعضاء حزب الاستقلال كما ورد في اول جملة من تصدير الوثيقة:"ان حزب الاستقلال الذي يضم اعضاء الحزب الوطني السابق وشخصيات حرة...."وكذلك جملة وردت في ديباجة الوثيقة:"...عن فروع حزب الاستقلال بسائر نواحي المغرب".

---

[17] لقد فكر مسئولو مدينة فاس فكروا في تحويل هذا المنزل، إلى متحف للمقاومة وجيش التحرير، اعتبارا للدور الذي لعبه مالكه في إخراج الوثيقة إلى حيز الوجود وتوقيعها من قبل ثلة من الوطنيين ممن غادر غالبيتهم إلى دار البقاء، تاركين وراءهم بصمة تاريخية مهمة سيذكرهم بها جميع المغاربة وكل الأجيال .رغم المشاكل والعراقيل التي تقف حجر عثرة في وجه إخراج مشروع متحف المقاومة إلى الوجود. لكن هذا المنزل الحامل لرقم **4** بالزنقة المذكورة، قيد رسميا في عداد الآثار، اعتبارا لكونه شهد توقيع وثيقة **11** يناير **1944**، باعتبارها منعطفا مهما في تاريخ الحركة الوطنية من أجل استقلال المغرب.في **8** يناير **2007** تقدم المندوب السامي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، بطلب لتقييد المنزل ضمن الآثار، ما استجيب إليه ونشر بالجريدة الرسمية. وانظر جريدة الصباح (المغربية)، "منزل مكوار بفاس... شاهد عصر على وثيقة الاستقلال" ، الاثنين, **14** يناير **2013**.

- ✓ الملاحظة الثانية:الوثيقة ضمت توقيع امراة مغربية واحدة هي مليكة الفاسي زوجة الاستاذ محمد الفاسي([18])
- ✓ الملاحظة الثالثة:ان الاعضاء الموقعين على الوثيقة هم من جل المدن المغربية وهي كما يلي:

المدينة او القرية	عدد الموقعين حسب عبد السلام البكاري([19])	عدد الموقعين حسب ابو بكر القادري([20])
فاس	27	23
الرباط	11	11
سلا	6	7
مكناس	5	6
مراكش	4	5
الخميسات	3	3
اسفي	3	3
قرية اولاد جامع	1	ــــــ
سيدي قاسم	1	1
مدينة ابن احمد	1	ــــــ
وجدة	1	1
سطات	1	ــــــ
القنيطرة	1	4
مانشيستر بانجلترا	1	ــــــ
الدار البيضاء	ــــــ	2
المجموع	مجموع الموقعين 66 ينوبون عن 14 مدينة مغربية	مجموع الموقعين 66 ينوبون عن 11 مدينة مغربية

[18]) انظر:إدريس ابايا:" وثيقة الاستقلال –عهد وفاء– بين ملك مخلص لوطنه وحزب قام بواجبه :،جريدة العلم المغربية، **14–2– 2011**.

[19])انظر:وثيقة **11** يناير**1944**،م.س،ص**237–238**

[20])انظر:مذكراتي في الحركة الوطنية،ج**2**،م.س،ص**190**

إن هذه الوثيقة حسب العديد من الدارسين والباحثين جاءت مؤكدة في ديباجتها على استقلال المغرب والوحدة الترابية للمملكة، وإرساء ملكية دستورية وديمقراطية، و تطبيق سياسة إصلاحية حقيقية في كافة الميادين تضمن الحريات الفردية و الجماعية، و المساهمة في الحياة الدولية عبر توقيع اتفاقيات مع الدول تضمن السيادة المغربية سياسيا و اقتصاديا.إن هذا الحراك الذي عاشه الشعب المغربي في هذه الفترة لم يكن سوى تتويجا لمسارات كفاحية تحررية، متنوعة و متجددة، أشعلتها أضواء مقاومة في كل ربوع الوطن.

وان التاريخ السياسي المغربي كتاب مفتوح على قراءات لا تنتهي و بتعدد زوايا القراءة و التفاعل، تتعدد العبر و الدروس. وان هذه الفترة المهمة من تاريخنا السياسي والاجتماعي لا زالت تطالبنا بالبحث العميق والتنقيب عن الحقائق، و لا زالت تحثنا لاستخلاص المبادئ من التاريخ الدياليكتيكي([21])، و ضمنيا تدفعنا لطرح عدة تساؤلات من بينها مسألة التضامن بين المغاربة والعرش والمغاربة فيما بينهم.

1:ردود الفعل الرسمية والشعبية على تقديم الوثيقة:

لقيت الوثيقة تجاوبا كبيرا و تلقائيا معها بحكم تعطش المغاربة عامة بكل مشاربهم وطبقاتهم لنيل سيادتهم على بلادهم والظفر بثرواتهم خاصة في ظل معاناتهم من بطش و جشع الاستعمار الذي كان همه الوحيد هو الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من الثروات وسحق أي محاولة تنم عن الرغبة في الاستقلال من خلال التضييق على الحقوق و الحريات و التجمعات و أيضا محاصرة النخبة المغربية التي كانت تتنامى كل يوم.وما من شك في أن إعلان وثيقة المطالبة بالاستقلال كان تعبيرا عن الرغبة التي يحس بها الشعب المغربي قاطبة،وقد تقبلها المغاربة رسميا وشعبيا وأيدوها بعرائض أخرى مماثلة وقعتها جميع الفئات والأجناس في اتحاد وتضامن تام إذ كان خطوة تقديم الوثيقة بمثابة جمع شمل المغاربة وتوحيد كلمتهم وصفهم. وعن هذا التأييد يقول علال الفاسي كنموذج لرجال الحركة الوطنية ما نصه:"توالت الوفود الشعبية

[21]) ديالكتيك في الفلسفة الكلاسيكية هو الجدل أو المحاورة و تبادل الحجج والجدال بين طرفين دفاعا عن وجهة نظر معينة و.يعتبر الديالكتيك الأساس الذي تبنى عليه الشيوعية بمعنى الجدل الذي يوصل إلى النظريات والقواعد التي تحكم الناس وتسير حياقم السياسية والاقتصادية والاجتماعية(أي الحاجة لمصدر).والمادية الديالكتيكية هي النظرة العالمية للحزب الماركسي اللينيني. وهي تدعى مادية ديالكتيكية لان نهجها للظواهر الطبيعية، وأسلوبها في دراسة هذه الظواهر وتفهمها ديالكتيكي بينما تفسيرها للظواهر الطبيعية،و فكرتها عن هذه الظواهر، نظريتها مادية.والمادية التاريخية هي امتداد مبادئ المادية الديالكتيكية على دراسة الحياة الاجتماعية، تطبيق مبادئ المادية الديالكتيكية على ظواهر الحياة الاجتماعية وعلى دراسة المجتمع وتاريخه .المادية التاريخية تاتي نظرية علمية حقا في المجتمع وذلك تحديدا لأنها تكشف عن الأساس الموضوعي المادي لمجمل الحياة الاجتماعية وتبين جوهر المجتمع البشري وتدرس قانونيات التاريخ العالمي... والديالكتيك عموما هو وحدة ونضال المتضادات عبر التاريخ ؛ اي علم درس التناقضات في ماهية الأشياء نفسها.

من كل نواحي المغرب ترفع لجلالة الملك عرائض التايد لطلب الاستقلال المرفوع من الحزب ،وقد شارك في هذا التأييد من كل الطبقات الاجتماعية ومن اكبر قضاة الشرع الإسلامي إلى ابسط رجال البوليس السري الذين لم تمنعهم ظروفهم من الاشتراك في هذا التضامن الشعبي العام ،وعمت البلاد نشوة الحديث عن الاستقلال واليوم الذي يحتفل فيه بانجازه"([22])، فقد امن قادة الحزب بأنهم قاموا بخطوة تاريخية اذا لم تتحقق نتائجها في الحين فقد تتحقق بعد نهاية الحرب([23]).

كما تم تأييد عريضة 1944 حسب الأستاذ عبد الله الجيراري من طرف أعضاء المجلس العلمي بفاس الذين حملوا عريضة الاستقلال إلى السلطان جلالة المغفور له محمد الخامس بحضور قضاة فاس وعدولها منهم محمد بن عبد السلام السائح الرباطي وإسماعيل الإدريسي ([24]) ،ولم تبد المنطقة الخليفية أي تردد في تأييد الفكرة وتجسد هذا التأييد و روح التضامن بوضوح في الرسالة التي وجهها حزب الإصلاح الوطني إلى جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه وذلك في 29 فبراير ومما جاء فيها :"مولانا لقد اطلعنا على القرارات السامية التي رفعتها إلى جلالتكم تلك النخبة الطاهرة من المغاربة (...)والوطنيين المجاهدين الأبرار هيأة حزب الاستقلال المغربي، وأنها لمطالب الأمة بأكملها والشعب باجمعه، لا يعارضها ولا يخرج عنها من نزع من قلبه الإيمان وأودع فيه الكفر والشقاق والخيانة والنفاق،وان حزب الاستقلال اذ يرفع الصوت اليوم ويرسلها صرخة داوية في الأفاق فإنما يرفعها بذلك باسم المغرب عاليا بين الأمم الحية والشعوب اليقظة ، ويثبت للعالم أن المغاربة أحرار لا يرضون بالذل والاستعباد ولا يصبرون على الضيم ولا يستكينون ولا يستسلمون لقوة الحديد والنار"([25]).

إذا فالوثيقة لقيت تأييدا شاملا وتضامنا تاما من طرف المغاربة على مختلف مستواهم الطبقي والفكري.

2:ردود فعل المستعمر :

لقد شكلت وثيقة المطالبة بالاستقلال صدمة قوية للإقامة العامة و برز ذلك بشكل جلي و قوي من خلال محاصرتها للموقعين على وثيقة المطالبة بالاستقلال و اعتقالهم بمعية أهم القيادات

[22] انظر:علال الفاسي،الحركات الاستقلالية في المغربي العربي،م.س،ص298.
[23] انظر:عبد الكريم غلاب،تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب،م.س،ص291
[24] انظر: عبد الله الجراري،شذرات تاريخية من 1900 الى 1950،مطبعة النجاح الجديدة،البيضاء،1986،ص140
[25] انظر:محمد بن عزوز حكيم، وثائق تشهد،مطبعة الساحل الرباط،1980،ص111

السياسية و الحزبية و الحقوقية بتهم واهية كالإعداد لانتفاضة مسلحة في المغرب([26])،واثر هذه الاعتقالات بدات المظاهرات في مختلف المدن والقرى المغربية فأغلقت المدارس وجامع القرويين والثانويات الإسلامية أبوابها ، تم اعتقال المئات من هؤلاء المتظاهرين وصدور أحكام بإدانتهم.و هكذا سيشكل فيما بعد الموقعون على وثيقة المطالبة بالاستقلال رموزا للكفاح و النضال من أجل نيل الاستقلال و رموزا للمغرب الحر و رجال الغد الذين سيعتمد عليهم في قيادة و بناء المغرب الجديد.

فقد اتضح للإقامة العامة الفرنسية أن هناك إجماعا كليا و تأييدا قويا وتضامنا رسميا وشعبيا على المطالبة بالاستقلال.



ـصورة لمدخل سجن صفرو يمين باب المقام الذي اعتقل فيه معتقلين من فاس في احداث 11 يناير 1944 .

ـصورة لمقر الحكم على المعتقلين في أحداث يناير 1944 بفاس،والذي أصبح اليوم ثانوية تحمل اسم (ثانوية القرويين) .

- مقبرة شهداء 11 يناير 1944 بفاس .

خاتمة استنتاجية:

وصفوة القول إن وثيقة المطالبة بالاستقلال في مقصديتها وتوجهها يجب التعامل معها باعتبارها نصا ثمينا وفريدا في الفكر المغربي الحديث والمعاصر، لأنها تعكس وعي النخبة

---

[26] انظر: عبد السلام البكاري،م.س،ص**341**

السياسية الوطنية المغربية في مرحلة هامة من مراحل تطورها ، وقد صيغت في شكل وثيقة لا مذكرة،فكرتها المحورية تنص على ثلاث مطالب:الاستقلال، الوحدة ،والدستور([27]) .

وتعتبر هذه الوثيقة نقطة تحول بارزة في تاريخ كفاح الشعب المغربي و نضاله المستميت من أجل نقل المغرب من دولة محمية إلى دولة ذات سيادة، تتمتع باستقلالها و حريتها ووحدتها.

إن التضامن الذي عرفه المجتمع المغربي والذي تجلى في هذا الحراك الذي عاشته كل فئات المجتمع المغربي في هذه الفترة والذي لم يكن سوى تتويجا لمسارات كفاحية تحررية، متنوعة و متجددة، أشعلتها أضواء مقاومة. وإذ يحتفل الشعب المغربي بهذه الذكرى في كل سنة،فللتعريف بمضامين الحركة الوطنية وأعلامها وأمجاد الأمة المغربية وتاريخها النضالي المجيد،حفاظا على الذاكرة الوطنية وتذكيرا للأجيال بضرورة بقدسية وحدتنا و ضرورة تضامننا واتحادنا والحفاظ على تراثنا والإشادة بإبطاله من اجل الاقتداء بهم للدفاع على المقدسات الدينية والوطنية للبلاد ومواصلة الكفاح من اجل تحقيق الوحدة الترابية لوطننا .

وان ما أنتجته هذه المرحلة المهمة من تاريخ المغرب من ممارسة مقاوماتية و سياسية و فكرية و ثقافية و نضالية، لازالت تحتاج الى تأطير زمني و فكري للمرحلة الكلونيالية بصداماتها و إصلاحاتها و احتكاك نظام وبنيات تقليدية مع حضارة غربية متميزة بأدواتها وبنظرتها للمجتمعات الغيرية. وان هذه الفترة من عمر مغربنا لا زالت تطالبنا بتحريرها من العصبية، و لا زالت تحفزنا لاستخلاص بعض المبادئ من التاريخ المغربي، و ضمنيا: طرح مسألة التضامن والتعايش والتلاحم بين فئات المجتمع المغربي من خلال وثيقة 11 يناير 1944 على اعتبار أن هذه الوثيقة شكلت نقطة تحول في تاريخ المغرب السياسي والاجتماعي.

و اختم هذه المشاركة بذكر مقولة لاستأذنا المرحوم سيدي محمد زنيبر:"(...)وإن الحركة الوطنية هي تراثنا جميعا من حقنا أن نهتم به كلنا ونداف عنه(...)" ([28]).

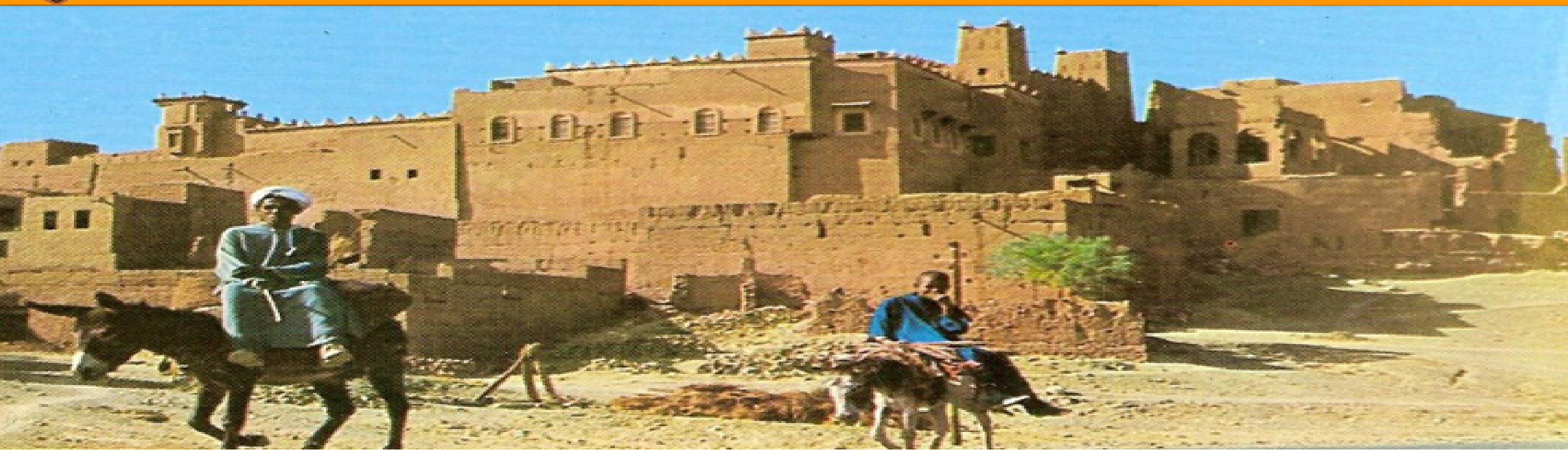
---

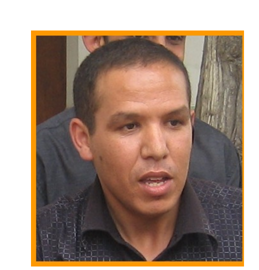
[27]جماعة من الدارسين،في النهضة والتراكم،دار توبقال،**1986**،ص**100**.

[28]انظر: صفحات من الوطنية المغربية : من الثورة الريفية الى الحركة الوطنية، طبع دار النشر المغربية،**1990**،ص**149**.



تاريخ المغرب المعاصر





المغرب المعاصر: بين حركة الفداء وتوافقات إكس ليبان



خالد أوعسو
باحث في تاريخ المغرب المعاصر

لقد أنتجت الشروط العامة التي عرفها المغرب خلال عقد الخمسينات حركة مسلحة جاءت كنتيجة للوضع الذي ألم بالبلاد على المستويين السياسي والاقتصادي، وإن كانت أصول العمل المسلح ضد فرنسا تعود إلى بداية معالم التغلغل التدريجي الفرنسي بالمغرب، عقب احتلال توات مرورا باحتلال أجزاء واسعة من التراب المغربي، سواء في شرقه أو في غربه سنوات 1907-1908، وانتهاء بالزحف على فاس وتوقيع عقد الحماية. لكن مع القضاء على المقاومة المسلحة في الثلاثينات، واعتقال رموز المقاومة السياسية مع بداية الخمسينات ، والإقدام على نفي السلطان في نفس الفترة ، تم بعث العمل المسلح – المؤطر هذه المرة داخل خلايا سرية- من جديد.

لقد اصطلح على هاته الحركة التي هزت المغرب من سنة 1953-1955 "بحركة الفداء"، والتي لم تكن فقط تتويجا للكفاح الوطني في شقه السياسي ، بل ايضا تتويجا للتطور الداخلي الذي عرفته الحركة السياسية من المطالبة بالإصلاحات إلى المطالبة بالاستقلال[29].

إن أهمية الأحداث التي عرفها المغرب خلال هذه الفترة لا تعود فقط إلى كونها أسهمت في انتقال القضية المغربية إلى دائرة الحل السياسي عبر مفاوضات اكس ليبان ، ولكن أيضا، وهذا هو الأهم إلى حمل فئات جديدة إلى دائرة تدبير أوضاع المغرب المستقل كنتيجة طبيعية لموازين القوى التي أفرزتها محطة اكس ليبان.

قياسا على ما سبق سيتم الوقوف عند السياق الذي يفسر ظهور حركة الفداء ، على ان اتناول في مساهمات لاحقة انتقال المقاومة إلى البوادي وإنشاء جيش التحرير وأخيرا الوقوف عند إسهامات الوضعية الداخلية والخارجية التي ساعدت على إيجاد حل للمشكل المغربي.

I-ظهور المقاومة الحضرية وتطورها.

1-في أسباب ظهور حركة الفداء.

لقد ارتبط نشوء حركة الفداء التي عرفه المغرب بعاملين اساسيين كان لهما الأثر البين في الانتقال من مرحلة الكفاح السلمي إلى مرحلة العمل المسلح.

أ – **تضييق الخناق على العمل السياسي:** بدأت فرنسا تتضايق من العمل السياسي بالمغرب بعدما تبين لها ان حركية الأحزاب أخذت تتجاوز الخطوط الحمراء ، ولعل انتقال القوى السياسية من المطالبة بالإصلاحات إلى المطالبة بالاستقلال دليل على كون التناقض بين المطالب الوطنية، ومصالح سلطات الحماية قد بدأت تتسع إلى درجة التعارض[30] .

لقد ساهمت السياسة الصارمة والسلبية للإدارة الاستعمارية التي فسحت المجال أمام الرأسمال الفرنسي للاستحواذ على الخيرات الوطنية ، في مقابل إبعاد الساكنة المحلية عن دواليب الحياة الاقتصادية والسياسية[31] في تعميق الوعي بالعلاقة القائمة بين المصلحة الوطنية وضرورة التحرر السياسي ، مما حتم على فرنسا تغيير أسلوب تعاملها مع زعماء الحركة الوطنية خاصة مع التحولات الكبرى التي ارتبطت أساسا بتنامي الفكر القومي و التحرري الذي أخذ في الانتشار مع نهاية الحرب العالمية الثانية.

---

[29]-م.ع.الجابري،المغرب المعاصر: الخصوصية والهوية –الحداثة والتنمية ، المركز الثقافي العربي، ط1988،1،ص:113-114. -

[30]-نفسه، ص:113.

[31] - Rivet Daniel , le Maroc de Lyautey à Mohamed V. Le double visage du protectorat , édition porte d'Anfa, Casa 2004 , p : 189.
Aussi : René Gallissot , Le patronat Européen au Maroc (1931-1942), Editions techniques Nord Africaines , Rabat, 1964 , p :18-19

لكن مع ذلك ، فإن ميلاد حركة الفداء كحركة مسلحة لم تتبلور إلا في سنة 1953 تاريخ نفي السلطان.

ب-نفي السلطان: أقدمت سلطات الحماية على نفي السلطان محمد الخامس بعدما تبين لها تطلع الأحزاب السياسية العميق للتحالف معه لما له من وظيفة روحية وسياسية داخل الهرمية الاجتماعية بالمغرب[32]، أيضا للمقاومة التي أصبح بيديها اتجاه ضد أي قرار تعتزم السلطات الفرنسية تطبيقه، فكان رد الفعل الفرنسي لا يبتعد عن السياسة العامة المطبقة بالمغرب منذ 1912 والمتسمة بالدبلوماسية وإلا فالعنف[33]، حيث ستعمل على نفي السلطان محمد الخامس يوم عيد الأضحى (20 غشت 1953) وتعويضه بابن عرفة بعدما تم الاعتماد عل كل من التهامي الكلاوي وعبد الحي الكتاني لخلق معارضة صورية ضد الملك [34]، فكان لهذا السلوك الاستعماري أن دفع المغاربة إلى التنظيم داخل خلايا مسلحة شعورا منهم أن عمل فرنسا قد استهدف في الصميم أحد مرتكزات البناء الوطني والذي حافظت عليه فرنسا ورسخته واضفت عليه شرعية[35] قبل ان تستهدفه.

2-تطور المقاومة داخل المدن.

أ- المراحل التي مرت منها: لقد اجتازت المقاومة الحضرية مراحل عدة قبل أن تتبلور كفعل منظم ، حيث يمكن رصد ثلاث محطات رئيسية تحكمت في سيرورة عمليات المقاومة:

-مرحلة الميلاد: اتسمت بضعف بين على مستوى التنظيم والتنسيق، بل حتى على مستوى الوسائل ، حيث أتسمت أغلب عملياتها بالعفوية وطغيان العمل الفردي على العمل الجماعي المنظم ، وكمثال على ذلك العملية التي قام بها علال بن عبد الله ضد بن عرفة بتاريخ 11 شتنبر 1953.

-مرحلة الهيكلة : وتميزت بالتوسع الكمي الذي بدأت تعرفه خلايا المقاومة بانضمام عدد من المقاومين ، أيضا بتحسن الوسائل المستعملة رغم عمليات المراقبة ، حيث كانت المناطق الخاضعة للاستعمار الإسباني قاعدة خلفية للمقاومة تزودها بمختلف أنواع الأسلحة[36]، وهو ما أعطى لعملياتها خلال هاته الفترة طابع التأثير، وكمثال على ذلك قنبلة السوق المركزي بالبيضاء (24 دجنبر 1953)، ومحاولة اغتيال بعض رموز الاستعمار (الكلاوي مثلا) .

[32]- جرمان عياش،اصول حرب الريف،ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق، مطبعة النجاح الجديدة،البيضاء،1992،ص30.
[33]- Alphonse Juin, ***Lyautey le politique et le Militaire***(Cahier ch. De Foucauld 1954), p143.
[34] -C.A. Julien, Le Maroc face aux impérialismes 1415-1956,Paris , Edition J.A, 1978,P : 281.
[35] Rivet,
[36]-عبد الله الصنهاجي،مذكرات في تاريخ الحركة الوطنية وجيش التحرير من 1947 إلى 1956، مطبعة فضالة ، المحمدية 1987،ص113-114.

-مرحلة التنظيم : وتميزت بقوة التنسيق بين خلايا المقاومة داخل مختلف تراب المغرب ، وبقوة العمليات التي أخذت تستهدف رموزا مؤثرة في القضية المغربية (محاولة اغتيال كل من الجنرال كيوم -20 يونيو 1954- والجنرال دوتفيل-24 ماي 1954-)، خصوصا وأن هاته المرحلة عرفت تقاطر كميات عديدة من الأسلحة القادمة من دول الشرق الأوسط بواسطة البواخر التي كانت تفرغ شحناتها بمنطقة شمال المغرب[37]، مما حتم على المقاومة الحضرية تجاوز مرحلة رد الفعل العفوي نحو التنظيم الدقيق.

ب- أهم العمليات المسلحة : ارتبطت حدة عمليات المقاومة بالظرفية السياسية التي أصبح عليها المغرب، فهو بدون سلطان شرعي ، مقيد بأغلال القمع والاضطهاد ، ومعرض للاستغلال والاستنزاف، وهو ما دفع العديد من المغاربة إلى التنظيم داخل خلايا مسلحة استهدفت الوجود الفرنسي في شموليته. وأمام كثرة العمليات المسلحة سنقتصر على أهمها لما لها من دلالة معنوية، سواء على المقاومين الذين ازداد حماسهم بنجاح تلك العمليات، أو بالنظر لما أحدثته هذه العمليات من إحباط وشعور بالعجز بالنسبة للفرنسيين.

- قنبلة القطار الرابط بين الدار البيضاء والجزائر: تم تنفيد العملية في العاشرة مساءا من يوم 7 نونبر 1953 من طرف كل من محمد بن الحاج منصوري ومحمد السكوري[38]، وقد خلف الحادث مقتل 7 أشخاص و3 عربات معطوبة، بالإضافة إلى خسائر مادية تقدر ب 100 مليون فرنك[39]، وكان من نتائج ذلك انتشار الفزع والرعب في وسط المعمرين والخونة ، وأدى ذلك إلى تراجع عدد راكبي القطار مدة من الزمن[40].

- محاولة اغتيال بن عرفة: رغم الحراسة التي تقوم بها أجهزة الأمن الفرنسية لابن عرفة ، ، تم اختراق موكب "السلطان" يوم 11 شتنبر 1953 أثناء توجهه لأداء صلاة الجمعة بمسجد أهل فاس، حيث سيتعرض لمحاولة الاغتيال من طرف علال بن عبد الله، هذا وقد تجددت محاولة اغتيال ابن عرفة، حيث سيصاب بعدة جروح أثناء خروجه من المسجد بمراكش يوم الجمعة 5 مارس 1954[41].

لقد كان لهذه العمليات وقع خاص لما لها من دلالة لدى الرأي العام الوطني والفرنسي وحتى الدولي، حيث استهدفت "ملك فرنسا"، بما يمثله ذلك من رفض تام لسياستها بالمغرب.

37- نفسه، ص :138-147.

38- نفسه، 138-147.

39- نفسه 113.

الملفات المغربية الكبرى العدد 1 ابريل 1996 ص 25 ، أيضا:

40 - le petit Marocain 8 Novembre 1953.

41 -Maroc presse 6 Mars 1954 .

-قنبلة السوق المركزي بالبيضاء: تمت العملية يوم 24 دجنبر 1953 ، في الوقت الذي كانت فيه الجاليات الأوربية المسيحية تستعد للاحتفال برأس السنة الميلادية. وقد نفذت العملية من طرف كل من محمد بن موسى وعبد الله أزناك[42]، وقد خلف هذا الحادث مقتل 17 شخصا وجرح 28، وكان من بين جرحى الحادث أسرة الجنرال "أون فروي" ، وقد تم اعتقال عدد من المقاومين حكم على أغلبهم بالإعدام[43].

-محاولة اغتيال الكلاوي: ارتبطت شخصية الكلاوي بالتحالف مع فرنسا ضدا على مصالح الوطن، فكانت النتيجة ازدياد العداء ضد "قواد فرنسا" حيث سيتعرض زعيم الجنوب لمحاولة اغتيال أثناء توجهه للصلاة بمسجد الكتبية يوم 20 فبراير 1954، لكنه نجا بأعجوبة[44] بعدما تعرض أحد مرافقيه (الإمام) لشظايا القنبلة التي أودت بحياته[45]. وقد كان لهذا الحادث تأثير سياسي من نوع خاص، خصوصا وأن العملية تم تنفيذها بمعقل الكلاوي(مدينة مراكش)، مما حتم على فرنسا مضاعفة حمايتها للأشخاص المرتبطين بها وخاصة كبار الشخصيات.

- اغتيال القادة العسكريين والشخصيات الفرنسية: استهدفت العديد من عمليات المقاومة ، خصوصا بمراكش ،الضباط السامين الفرنسيين والمرتبطين بهم سواء في الجهاز الإداري أو العسكري ، هكذا تعرض كل من الجنرال "الفاطمي" لعملية اغتيال يوم 13 فبراير 1954، بعده سيلقى الجنرال " دوتفيل" المسؤول عن ناحية مراكش نفس المصير في 20 يونيو 1954[46]، كما تعرض الجنرال كيوم المسؤول المباشر عن عملية 20 غشت 1953[47] يوم 24 ماي 1954 لهجوم مسلح بمراكش أسفر عن جرح عدد من العسكريين المرافقين له[48]، بعده سيلقى الدكتور "إيرو" مدير جريدة "لافيجي ماروكين "حتفه يوم فاتح يوليوز 1954[49]. وقد كان لوقع هذه العمليات ازدياد حدة الخوف داخل الأوساط الاستعمارية ، بعدما بدا لها من تسلسل عمليات المقاومة، أنها أخذت تستهدف كل رموز الاستعمار الفرنسي بدون استثناء.

وقد وازى العمليات التي كانت تقوم بها المقاومة المسلحة ، خوض معارك على الواجهة الاجتماعية – السياسية أثبتت بالملموس تجدر حركة الفداء داخل شرائح اجتماعية واسعة من

[42]- عبد الله الصنهاجي، ص: 120.
[43]-جريدة السعادة 11-12 دجنبر 1954، أيضا عبد الله الصنهاجي، ص: 120.
[44] - Bernard Stephane, le conflit Franco-Marocain 1943-1956, Bruxelles, Ed de l'institut de sociologie de l'université libre 1963, Tome 1, P : 216.
[45] - la vigie Marocaine, 21 février 1954.
[46]- - Bernard Stephane, p : 216.
[47]- يتعلق الأمر بعملية نفي السلطان محمد الخامس.
[48]-la vigie marocaine , 25 Mai 1954
[49]- la vigie marocaine , 2 Juillet 1954

الشعب المغربي خصوصا بعدما برزت للوجود النقابات التي رفعت راية الكفاح في سبيل تحرير الطبقة العاملة[50]، حيث ستقوم بالدعوة لمقاطعة البضائع الفرنسية مع مطلع سنة 1954، وعلى رأسها التبغ باعتباره أهم المصادر الهامة للضرائب الفرنسية والتي كان يدفعها عادة المغاربة لكونهم يشكلون 90 في المائة من مستهلكي هذه المادة، فكان لذلك أثره على الاقتصاد الفرنسي، حيث ستنخفض مبيعات هذه المادة بحوالي 78في المائة[51]، وهو ما دفع منظمات العمال بتعاون مع ممثلي الصناعات الوطنية على تصعيد الإضرابات ومقاطعة البضائع الفرنسية مقاطعة لا تقتصر على المنتجات المستوردة ، بل تتعداها إلى منتجات المصانع الفرنسية المحلية [52] .

ج- حصيلة حركة الفداء بالمدن: من الصعب الوقوف على الحصيلة الحقيقية لحركة الفداء بالمدن نظرا لتضارب الأرقام ، غير أننا سنقف عند بعض الإحصائيات في أوقات زمنية مختلفة قصد رصد حدة هذه العمليات ، ولكي ندرك أهمية الأعمال الفدائية.

فبين 20 غشت و 20 أكتوبر 1953 أحصي رسميا ما يقارب 20 حريقا متعمدا ،نذكر منها حرائق بن سليمان المشهورة التي وقعت بمركز الفرشي "كورك" وبضيعة "هانزان"،وكذا حرائق مركز الفرشي بتمارة ومعمل بن شقرون بسلا[53] ،وبعد مرور 4 أشهر على نفي السلطان تم تسجيل 58 قتيلا و 117 جريحا [54] ، لتصل هذه الأرقام بعد مرور سنتين وبضعة أشهر إلى 710 قتيلا و 2000 جريحا ، منهم 607 قتيلا و 406 جريحا مغربيا ، والباقي من أصل أوربي (فرنسي في الغالب)، بعد تنفيذ أزيد من 6000 عملية مسلحة [55]، وقد عرفت هاته العمليات تركيزا كبيرا في الدار البيضاء خلال الأشهر الأولى التي أعقبت نفي السلطان ، لكنها سرعان ما ستشمل باقي المدن لتحصد معها عددا كبيرا من الأرواح.

نستشف من خلال هذه الإحصائيات أن عدد الضحايا (االقتلى) تضاعف أربع مرات إذا أخذنا كمعدل 58 قتيلا كل أربعة أشهر، مما يدل على واقع التطور التنظيمي لحركة المقاومة.

3-تنظيم المقاومة المسلحة بالمدن:

أ-أبرز منظمات المقاومة: بعد الاقتناع من عدم جدوى العمل السياسي ، تم تكوين الخلايا السرية ، وما إن حلت سنة 1949 حتى تم تكوين منظمة "اتحاد الجنوب" داخل حزب الاستقلال ، وقد

---

[50]- ألبير عياش، المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي، نور الدين السعودي، مراجعة عبد الأحد السبتي، ادريس بنسعيد، سلسلة معرفة الممارسة، منشورات دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، أبريل 1985، ص: 411.
أيضا: المرنيسي عبد الحميد ، الحركة الوطنية المغربية ، مطبعة الرسالة ، بدون تاريخ ، ص:140-141.

[51]-روم لاندو: تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نيقولا زيادة، دار الثقافة ، الطبعة الثانية، 1970،ص:419.

[52]-عبد الرحيم الورديغي، المقاومة المغربية ضد الحماية الفرنسية 1952-1956، مطبعة الأنباء بدون تاريخ، ص:137.

[53]-جلال عبد العاطي، الاستعمار الفرنسي في مراكش، مكتبة النهضة المصرية، 1954،ص:95-98.

[54]- مجلة الأساس عدد 3 يونيو 1978، ص:13 (مقال لأبو ضمير محمد).

[55]-نفسه

تركزت بالخصوص بإقليمي مراكش وورززات[56]، ثم بعد ذلك تم تكوين وتوسيع عدة مراكز للمقاومة شملت جل التراب المغربي ، وقد شكلت مدينة الدار البيضاء مركز الثقل في تنفيد العمليات المسلحة ، حيث كانت تنشط أعتد المنظمات وهي " المنظمة السرية" التي قامت بأهم العمليات كقنبلة السوق المركزي واغتيال الدكتور "إيرو"، وكانت أول رصاصة أطلقتها المنظمة السرية قد تمت يوم 4 شتنبر 1953 ضد مفتش الشرطة العميل المدعو "العربي المسكيني" ثم بعده سقط "محمد بنيس"و " عبد الله الفاسي" وهي عمليات ما كانت لتنجح لولا وجود شبكة وطنية ودولية(باريس ومدريد) تؤمن عمليات التزود بالمال والسلاح[57] ، وقد كان محمد الزرقطوني أحد أبرز مناضليها[58].

وإلى جانب المنظمة السرية هناك أيضا منظمة "الهلال الأسود" ذات التوجه اليساري[59]، والتي قامت بالعديد من العمليات المسلحة بالبيضاء ، ويعتبر "عبد الله العياشي" الشيوعي المغربي أحد أقطاب هاته المنظمة.

هناك أيضا منظمة "أسد التحرير" التي شرعت في العمل كجماعات متفرقة، بإمكانات محدودة[60]، لكنها سرعان ما ستتهيكل ،حيث اتخذت من الدار البيضاء مقرها المركزي بعدما كونت قيادة من 11 شخصا ، بالإضافة إلى عدة فروع كالقنيطرة وبن أحمد والمذاكرة، وقد قامت هذه المنظمة بعدة عمليات خلفت 23 قتيلا و16 تجريد من السلاح و36 حريقا على أن أبرز عملياتها الهجوم على دورية رجال الدرك ببوسكورة[61].

بالإضافة إلى ذلك توجد العديد من المنظمات والجماعات كمنظمة "اليد السوداء"، وجماعات حمان الفطواكي، وابن البقال بمراكش، وعمر المسفيوي، والحسن الطفرائي بأحواز مراكش[62].

وقد كانت لمنظمات المقاومة شبكة من العلاقات الدولية والداخلية ضمنت بموجبها التزود بالأسلحة ، بالإضافة إلى عمليات الاستيلاء على الأسلحة المصاحبة لكل عملية مسلحة ، وكان الرئيس المصري جمال عبد الناصر ، أحد أهم مصادر السلاح بالنسبة للمقاومة. وقد لعب كل من "أحمد الشتوكي" و"عبد النبي العرايشي" دورا هاما في تزويد خلايا المقاومة في الداخل بالسلاح انطلاقا

---

[56]- عبد الله الصنهاجي ، ص: 94.
[57]-الحسن العرائشي: انطلاق المقاومة المغربية وتطورها، مطبعة الرسالة، الرباط، 1982، ص:61.
[58]-مجلة المقاومة، العدد1، ط2، يونيو 1987، ص:10.
[59]- مجلة الأساس عدد 3 يونيو 1978، ص:15.
[60]-مجلة المقاومة، عدد 12 يونيو1985،ص:36.
[61]-للتفاصيل أكثر، نفس المرجع ،ص: 38-62.
[62]-Bernard Stephane, OP.Cit, P :216.

من طنجة، كما لعب كل من "ابراهيم السوسي" و "سعيد السوسي" نفس الدور انطلاقا من مدينة كلميم التابعة للحماية الإسبانية[63].

ب-علاقة المقاومة الحضرية بالأحزاب السياسية: إن ملامسة العلاقة بين المقاومة الحضرية والأحزاب السياسية يدفع إلى التساؤل هل كانت المقاومة استمرارية للعمل السياسي ، وأن عملياتها كانت خاضعة لتوجهات الزعماء السياسيين ؟ أم أنها كانت رد فعل على العمل السياسي السلمي الذي يتبع استراتيجية للعمل عبارة عن تكتيكات ممرحلة وطويلة ، خصوصا إذا استحضرنا طبيعة الانتماء الاجتماعي لكل من المقاومة والأحزاب السياسية . ففي الوقت الذي تشكل فيه البورجوازية الناشئة القاعدة الجماهيرية للتنظيمات السياسية ، ينحدر أغلب المقاومين من شرائح اجتماعية شعبية.

يذهب كل من الصنهاجي، ريزيت، وبيتان بول إلى نفي كل علاقة تنظيمية بين المقاومة والأحزاب السياسية ، فقد كان حزب الاستقلال على سبيل المثال يعارض عمليات المقاومة ، ويعتبر ذلك مساهمة من التنظيمات السرية في إجهاض أية إمكانية لمعالجة القضية المغربية على المدى القريب، حتى أن تصريحات مسؤوليه أخذت تنعت أعمال المقاومة بالعمليات الإجرامية[64].وما غياب اعتقال مسؤولي الهياكل الحزبية في الوقت الذي تم القبض على مجموعة من مسيري التنظيمات السرية للمقاومة إلا دليل على انتفاء أية علاقة تنظيمية للمقاومة بالأحزاب ، زد على ذلك أن ملفات المحاكمة التي توبع فيها عدد من مسؤولي خلايا المقاومة (كمثال على ذلك محاكمة "اليد السوداء") أعطت الدليل للسلطات الاستعمارية على استقلالية المنظمات المسلحة عن القوى السياسية [65] . غير أن ذلك لا يعني القطيعة التامة بين الحركتين، بقدر ما يعني القطيعة مع الاستمرارية أو الإلحاقية، فقد كانت الاتصالات بين زعماء المقاومة ومسؤولي الأحزاب قائمة ، إضافة لكون منظمات المقاومة كانت تتشكل من قواعد الأحزاب السياسية ، حتى أن روم لاندو يعتبر المقاومة ناتجة عن غياب الاتصال بين الحزب وقواعده نتيجة واقع القمع [66] . فرغم إعلان منظمات المقاومة استقلالها عن الأحزاب(مثلا: المنظمة السرية)، فإن "التنسيق" كانت حاضرا ، حيث عملت الأحزاب على ضمان استمرارية خلايا المقاومة بتزويدها بالأسلحة والمال ، ما يعني أن "الاتصالات" كانت قائمة ، بل حتى "المساهمة المباشرة" في تسيير خلايا المقاومة ، خاصة

[63]- الصنهاجي، ص:113-114.
[64]-كمثال على ذلك تصريح محمد اليزيدي بمركز الحزب بالرباط يوم 10 اكتوبر 1955 .انظر: الصنهاجي، ص:198.
[65]- Robert Rezette, les partis politiques Marocains, Universités de Bordeaux, 1954, P : 226.
Aussi : Buttin Paul, le drame du Maroc, Paris, Edition du Cerf, 1955, P : 130-131.
[66]- روم لاندو، تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة، دار الثقافة، بيروت، الطبعة 2، 1988، ص: 413-414.

وأن العديد من القيادات السياسية قد نفد صبرها من الوسائل الدبلوماسية وكانت توثر اللجوء إلى وسائل أشد عنفا [67] .

[67] نفسه، ص: 414.



تاريخ المغرب المعاصر







صفحات من التاريخ الاقتصادي:المعاهدة التجارية المغربية الألمانية لسنة 1890م نموذجا

محمد أبيهي
باحث في تاريخ المغرب المعاصر

ـ مدخل:

ظل المغرب عبر مراحله التاريخية محط أطماع الأوروبيين نظرا لموقعه الجغرافي، الذي يعد مدخلا للقارة الإفريقية من الشمال الغربي، بالإضافة إلى امتداد سواحله عبر واجهتي البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وكما يشرف موقعه على جبل طارق كبوابة للخطوط الملاحية العالمية، التي أغرت الأوروبيين منذ الكشوفات الجغرافية الكبرى. وإذا كانت علاقة المغرب بفرنسا تعود لقرون مضت، فإن علاقته بألمانيا البروسية عرفت تأخرا كبيرا،فمثلا ترجع العلاقات الأولى بين البلدين إلى عصر الدولة الموحدية،حيث نشط الرواج التجاري في القرن 13م بين المدن المغاربية والمدن الفرنسية والجرمانية،[68]

[68] حبيدة محمد،تاريخ أوروبا من الفيودالية إلى الأنوار، منشورات كلية الآداب،الرباط،أكدال،جامعة محمد الخامس،سلسلة رسائل وأطروحات،رقم 42،الطبعة الأولى،2010م،ص48.

ونذكر كذلك مشاركة قوات بروسية خلال العصر السعدي في معركة وادي المخازن سنة 1578م، حيث تميزت هذه المرحلة بالاحتلال البرتغالي لسواحل المغرب في النصف الثاني من القرن 15م.

وتأرجحت العلاقات المغربية الألمانية بين مستويات التقطع والاستمرار، تبعا لطبيعة الصراع والاصطدام بين المغرب وأوروبا، الذي اتخذ طابع الجهاد لصيانة الهوية المغربية من التهديدات الخارجية،[69] ولكنها عرفت هذه العلاقات تطورا ملحوظا خلال العصر العلوي، وأصبحت بروسيا تولي أهمية لحضورها الاقتصادي والدبلوماسي بالمغرب، وتعتبر المعاهدة التجارية الموقعة بين البلدين من بين أهم القواسم التاريخية المشتركة، التي جسدت مظاهر التعاون الاقتصادي بين البلدين في ظرفية عرفت اشتداد التنافس الأوربي على البلاد.

فما هي مراحل التعاون الاقتصادي بين البلدين؟ وكيف أسهمت المعاهدة التجارية لسنة 1890م في توطيد الحضور الألماني بالمغرب؟

أولا:التطور التاريخي للعلاقات المغربية الألمانية:

ترجع الاهتمامات الألمانية الأولى بالمغرب إلى بداية القرن 17م، حيث ظهر تبادل تجاري بين مدينة هامبورغ الألمانية والمغرب،[70] واعترض قراصنة سلا سفنها ومراكبها،[71] وحاول الإمبراطور الجرماني رودولف الثاني(Rodolfo II) (1552 -1612) تدارك حصار قراصنة سلا،[72] فلجأ إلى

---

[69] *عبد المجيد القدوري،المغرب وأوربا ما بين القرنين **15** و **18**م، ومسألة التجاوز،المركز الثقافي العربي،الطبعة الأولى **2000**م،ص:**73**.*

[70] *المنصور محمد،المغرب قبل الاستعمار،المجتمع والدولة والدين **1792ـــ1822**م،ترجمة من الانجليزية محمد حبيدة،المركز الثقافي العربي،الطبعة الأولى،**2006**م،صص**133 ـــ 134**.*

[7171] *Guillen (Pierre), L'Allemagne et le Maroc **de 1870 a 1905,Paris,P.U.F,1967**,P:4*

- للتوسع في موضوع تاريخ قراصنة المغرب يرجى الرجوع إلى المراجع التالية:

ـــ أميلي حسن،المغاربة والمجال البحري في القرنين **17** و **18**م،منشورات مختبر الأركيولوجيا والتراث الثقافي الساحلي،كلية الآداب المحمدية،دار النشر أبي رقراق،الطبعة الأولى **2011**م.

-Leïla Maziane,Salé et ses corsaires (1666-1727):Un port de course marocain au XVIIe siècle,Presses Universitaires de Caen Bibliothèque du pôle universitaire Normand,2008

[72] استقر رودولف هابسبورغ في سن الأحد عشر بمدريد لدى بلاط خاله فيليب الثاني ملك إسبانيا الأكثر انغلاقاً ومحافظةً من البلاط الذي سيحكمه،وتوج رودولف ملكاً على المجر سنة **1572** وملك بوهيميا سنة **1575**،وصعد العرش الإمبراطوري بعد عام واحد وهو حالة فريدة من نوعها ذلك العصر لكونه ملكاً أعزباً.

وساطة المغامر الانجليزي شيرلي(Shirly) لعقد معاهدة سلمية مع المغرب، وفشلت هذه الوساطة، وتوقفت بالتالي المبادلات التجارية بين هامبورغ ومراسي المغرب بفعل أزمة الإتاوات البروسية.[73]

وخلال العصر المعاصر،عرف الاقتصاد الألماني خلال هذه المرحلة نموا كبيرا، فقد حققت الصناعات الثقيلة تطورا كبيرا، وتضاعف الإنتاج الصناعي سنة 1880م بفعل ارتفاع نسبة الاستثمارات وارتفاع الطلب على بناء المشاريع،ونمت كذلك التجارة والقطاعات المصرفية، حيث انخرطت في مشاريع مالية بالخارج، وساهمت التجمعات الصناعية الكبرى في بلورة السياسة الخارجية الألمانية، حيث دخلت غمار المنافسة الاستعمارية للسيطرة على الأسواق العالمية، وظلت هذه التجمعات تتطور في اتجاه الرأسمالية الصناعية والمالية.[74]

نتيجة لذلك، أفرزت التحولات السياسية والاقتصادية نسقا سياسيا جديدا في أوروبا، والذي تمثل في القوة الاقتصادية والسياسية البروسية، حيث أصبح لها وزن كبير في العلاقات الدولية، فقد أسهم بناء المؤسسات، وتقوية الاقتصاد، وتوحيد السوق البروسية في حضور ألمانيا في مناطق النزاعات الاستعمارية بأوروبا وإفريقيا، وبدأت معالم سياسية اقتصادية جرمانية تبرز في الأفق بعد النقلة الاقتصادية لألمانيا الموحدة، ورأى الألمان في السوق المغربية مجالا لترويج بضائعهم التجارية، وكان التبادل التجاري بين البلدين يفتقر إلى إطار قانوني ينظم التعاون التجاري بينهما، وهو ما عجل بضرورة عقد معاهدة تجارية سنة 1890م.

ثانيا: المعاهدة التجارية والحضور الاقتصادي الألماني بالمغرب:

قام السلطان المولى الحسن باستشارة موسعة لأعيان فاس من تجار وقضاة ورجال الدين،[75] بشأن توقيع المعاهدة التجارية مع ألمانيا، وذلك قصد تسريح بيع الحبوب للألمان،[76] وخلال هذه المرحلة،استفحلت تجارة تهريب الحبوب المغربية إلى جبل طارق، مما خلق أزمة تسويقها بين البلدين، وقررت الحكومة الألمانية منذ سنة 1885م تكثيف مجهودها لإبرام المعاهدة التجارية مع المخزن، وعينت

[73] بن الصغير خالد ،المغرب بين النفوذ البريطاني والألماني خلال القرن **19**م،ندوة المغرب وألمانيا،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،سلسلة ندوات ومناظرات رقم **17**،الرباط **1991**م،ص**53**.

[74] *Nicole Piétri, évolution économique de l'Allemagne du Milieu de XIXe siècle a 1914,société d'édition d'enseignement supérieur, Paris,1988,p:222*

[75] ابن زيدان عبد الرحمان،إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة أخبار مكناس ،الجزء الثاني،الطبعة الثانية،1990م،ص ص:389ـــ394.

[76] *عمر أفا،الاستشارات السلطانية في مجال الإصلاحات بالمغرب في القرن **19**م،مج كلية الآداب،الرباط،العدد **16**،1991م،ص ص:57ـــ61.*

لذلك شارل طاطنباخ (Tattenabach)[77] وزيرا مفوضا جديدا للحكومة الألمانية بطنجة من أجل الدفع بالمفاوضات مع المخزن، حيث زار السلطان في مدينة فاس للتفاوض حول السبل الممكنة لفتح السوق المغربية أمام البضائع التجارية الألمانية، ونجحت ألمانيا في عقد المعاهدة التجارية مع المغرب، والتي سمحت للألمان بولوج الاقتصاد المغربي من بابه الواسع، وشكلت هذه المعاهدة الإطار القانوني، الذي منح لألمانيا حق الدولة الأولى بالرعاية،[78] وتم التوقيع على المعاهدة في فاتح يونيو عام 1890م، وأمضاها المفضل غريط من جانب المخزن، والمفاوض الألماني طاطنباخ من الجانب الألماني.[79]

وتضمنت المعاهدة التجارية سبع بنود، كانت بمثابة الإطار القانوني الذي وطد ولوج ألمانيا للسوق المغربية،[80] ونص الفصل الأول والثاني على نهج سياسة التعاون بين البلدين في جميع المجالات بإقرار المساواة وحرية المبادلات التجارية لبعض المواد والسلع إلا الممنوعات، كالبارود، والأسلحة والسجائر، وذلك مقابل تأدية التجار الألمان لأعشار الديوانة، واشترط أن تكون مصحوبة بشهادة أمناء الديوانة، وتضمن الفصل الثاني تقييدا لأنواع السلع الخارجية والتسعيرة التي تؤدى على مواد التصدير،[81] بينما أعطى الفصل الرابع حرية وسق الحبوب، وورد في هذه المعاهدة، أن تجار الألمان لهم الحرية في التجارة في جميع الأسواق دون صعوبات وعراقيل، واشترطت أداء الصاكة في وسق الحبوب من مرسى إلى مرسى أخر.[82] شكل توقيع معاهدة 12 شوال عام 1307هـ الموافق لفاتح يونيو 1890م، تتويجا للجهود الدبلوماسية للسفراء الألمان المعتمدين بطنجة منذ السبعينيات من القرن 19م، وازداد حضور المؤسسات التجارية والصناعية في السوق المغربية، وبادرت إلى تأسيس فروعها بأهم الموانئ المغربية لتأمين سلامة الخطوط التجارية للربط بين جل الأسواق المغربية، وتأسست العديد من الوكالات الألمانية

---

[77] *طاطنباخ فون كريستيان(1846-1909): دبلوماسي ألماني مثل بلاده في المغرب كوزير مفوض مقيم بطنجة،ولد في مدينة لاندسهوت(Landshut)،وينتمي طاطنباخ إلى أسرة نبيلة ورث عنها لقب الكراف التي تعني الكونت،واشتغل في إدارة إقليم ألزاس – لورين ما بين 1873 و 1878م،والتحق بوزارة الخارجية،فعين كاتبا لدى السفارة الألمانية في بيكين،وارتقى مستشارا لدى سفارة بلاده في مدريد،وصار بعد ذلك يلم بالتدريد لقضايا المغرب،بوطالب إبراهيم،مادة: طاطنباخ فون كريستيان،معلمة المغرب،م.س، ج 17،ص:5677.*

[78] التمسماني خلوق،عبد العزيز،جوانب من تاريخ المغرب التجاري،معاهدة يونيو **1890**م بين المغرب وألمانيا، جريدة العلم الثقافي،العدد **761**،فبراير **1992**،ص**3**.

[79] رسالة من المولى الحسن إلى الإمبراطور الألماني غليوم الثاني،مؤرخة في **8** فبراير **1891**م،محفظة مديرية الوثائق الملكية ،رقم: **(1897–1912)**، **cote :TH-211**،الرباط.

[80] *جرمان عياش،دراسات في تاريخ المغرب، منشورات الشركة المغربية للناشرين المتحدين،الطبعة الأولى،**1986**م،ص:**232***

[81] عبد اللطيف الشادلي،نصوص واتفاقيات دولية مبرمة بين المملكة المغربية ودول أجنبية،ج الثالث،من سنة **1865**م إلى سنة **1923**م،المطبعة الملكية،الرباط،**2007**م،ص:**41**. أنظر ملحق الوثائق، الوثيقة **9**،ص:**392**

[82] المرجع نفسه،ص:**41**



كوكالة فرانكفورت التجارية، التي طالبت بفتح خط تلغراف يربط الصويرة بفرانكفورت لتسهيل التواصل بين الجالية الألمانية،[83] وارتبطت هذه المؤسسات التجارية بشبكة من الشركات الملاحية الألمانية لتأمين خطوط التبادل التجاري بين المغرب وألمانيا بمختلف الموانئ المغربية،ونجد على سبيل المثال الشركات التالية: (O.P.D.R) و (Woerman Linie) و (Atlas Linie) ،التي عملت على فتح خطوط منتظمة بأهم الموانئ المغربية.[84]

إن المعاهدة التجارية المغربية الألمانية قد أفرزت واقعا اقتصاديا جديدا تميز بحضور قوي للتجار الألمان في الأسواق المغربية بواسطة شبكة من السماسرة والمحميين من التجار المغاربة، ودعمتها شبكة قنصلية منتشرة في أغلب المدن كقنوات تفاوضية لمعالجة مختلف القضايا التي أثارها المحميون الألمان بالمغرب،[85] وعكست هذه المعاهدة القواسم التاريخية المشتركة بين البلدين، وساهم توقيعها في نمو المصالح التجارية الألمانية بالمغرب، مما سمح للشركات الألمانية بدخول الأسواق المغربية، حيث عرفت عدد السفن الملاحية الألمانية المتوجهة لميناء الصويرة تطورا سنة 1890م، إذ وصل عددها إلى 28 سفينة تجارية قادمة من مدينة هامبورغ، ومكن ذلك من انفتاح المغاربة على المنتوجات الألمانية، التي أصبحت تنافس المنتجات الفرنسية والبريطانية.

---

[83] *Guillen (Pierre), L'Allemagne et le Maroc,op,cit,P :336*

[84] *Ibid,PP:371-370*

[85] جرمان عياش،دراسات في تاريخ المغرب،م.س،ص:**243**.



تاريخ المغرب الوسيط







قضايا إشكالية أثارتها حملة عقبة بن نافع على بلاد المغرب الفهري

أحمد العثماني
باحث في تاريخ المغرب الوسيط

شكلت مرحلة الفتوحات بقيادة عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه في مرحلتيها،(الأولى بين50ه و 55ه والثانية بين 62ه و64ه)، منعطفا حاسما في تاريخ الفتوحات لبلاد المغرب بحيث اعتبرت التأسيس الفعلي لتواجد الإسلام في المنطقة.فقد كان أول من وضع أسس الاستقرار بالمنطقة من خلال تأسيسه لمدينة القيروان سنة50ه، وبالتالي تجاوز الخطة الحربية السابقة التي كانت تقوم على عدم الاستقرار و الاكتفاء بالهجوم ثم العودة إلى مركز العمليات بمصر(1) ،كما كان أول من توغل في بلاد المغرب إلى أقصى الغرب عند المحيط الأطلسي، حيث جال في المنطقة شرقا و غربا، وتمكن من التعرف على تضاريسها ومسالكها بشكل دقيق، جعلته يمنح المسلمين خريطة جغرافية مفصلة عن المنطقة والتي كانت مجهولة قبله .

ورغم اعتراف الجميع بالأهمية القصوى لفترة ولاية عقبة بن نافع في المغرب ودورها الأساسي في التحول الحضاري الذي عرفته المنطقة، فإنها مع ذلك أثارت مجموعة من القضايا الخلافية غير المنتهية

حول إنجازاته، و التي اتخذت منحى سلبيا على العموم عند تقييمها. و سأحاول في هذه الدراسة مناقشة مجموعة من القضايا التي أثيرت حول مسيرة عقبة بن نافع في بلاد المغرب من خلال منهجية القراءة التركيبية للنصوص مع استحضار آلية النقد بشكل دائم ،وبحكم طبيعة الموضوع فإنني لن أتوقف عند الأحداث التفصيلية إلا ما يقتضيه السياق.

القضية الأولى، مقتل عقبة و حقيقة مقاومة البربر:

من المعروف لدى المطلعين على التاريخ المغربي أن بعض المصادر التاريخية تجعل من إهانة عقبة بن نافع رضي الله عنه لكسيلة زعيم قبائل أوربة البرنسية السبب الرئيس في انقلابه على العرب الفاتحين وطردهم من القيروان، ولم تذكر سببا آخر لهذا التغيير المفاجيء. وجل الباحثين العرب المعاصرين وغيرهم اعتمدوا على هذا الخبر في تفسير هذا الموقف، وحاول بعضهم دعمه من خلال ربطه بالسياسة العامة التي نهجها عقبة تجاه البربر، القائمة على العنف والشدة والاحتقار، وبحسب رأي أحدهم فقد"أثار عنفه وشدته واحتقاره للبربر وأشرافهم على ما يبدو حميتهم وجعلهم يسعون إلى لم شملهم لمواجهة المسلمين"[86]، و تقر أغلب هذه البحوث أن عقبة ارتكب خطأ فادحا بإساءته معاملة كسيلة الأوربي ومحاولة إذلاله بعد أن كان أبو المهاجر يتألفه ويداريه[87].

بيد أن هذه البحوث عند تناولها لهذه القضية يغيب عنها الحس النقدي، وتخضع كلية لهذه الرواية دون أدنى تحفظ، والصحيح أن انقلاب كسيلة اجتمعت فيه عدة أسباب وهو ما سنحاول إثباته الآن.

أما عن الإهانة فقد أوردتها جل المصادر وبنفس الصيغة تقريبا، لكن الدراسة المتفحصة والمتأنية لهذه النصوص تظهر ميلها في خطها العام إلى المبالغة، وحتى نعيد الصورة إلى حجمها الطبيعي علينا الرجوع إلى البداية لصياغة الأحداث من جديد.

نعلم أن أول لقاء بين العرب وكسيلة الأوربي كان على عهد أبي المهاجر(55ه-62ه)، الذي عندما وصل إلى علمه أن هناك تحالفا تشكل في نواحي تلمسان بين"أوربة وبعض الروم[88]،"توجه إليهم وتصادم معهم عسكريا واستطاع الانتصار عليهم وأسر كسيلة. فقام أبو المهاجر انطلاقا من سياسته التي نهجها والقائمة على التقرب من البربر ومحاولة تأليف قلوب زعمائهم، بتقريبه إليه وتعامل معه برفق ولين، وخلق معه شبه تحالف، ضمن به حياد جزء من البربر، في المواجهة الأساسية التي ارتضاها مع البيزنطيين.

نستنتج من ذلك أن كسيلة كان على علاقة قوية مع البيزنطيين، ونظرا لانقلاب موازين القوى ارتأى أن يتقرب إلى العرب ويجاري سياسة أبي المهاجر مادام أنها لم تعرض مصالحه ومصالح قبيلته للخطر، بمعنى أنه رأى في سياسة أبي المهاجر استمرارا للتقاليد التي سار عليها الرومان مع زعماء بعض القبائل البربرية، والقائمة على الولاء مقابل حماية وضمان امتيازاتهم[89].

لكن بعد عودة عقبة بن نافع رضي الله عنه لحكم المنطقة تغيرت الأمور وظهرت سياسة جديدة تنسجم وتفكيره القائم على محاولة إخضاع جميع القبائل إلى الإسلام دون محاباة لهذه على تلك أو هذا الزعيم على ذاك، لذلك في حملته على المغرب لا نجد ذكرا لكسيلة، إلى أن تخبرنا المصادر بخروجه واعتراضه لطريق عقبة في تهودة .

والظاهر أن عقبة منذ دخوله القيروان لم يحفل بهذا الشخص، فتتفق جميع المصادر على أنه ضايق واعتقل أبا المهاجر ووضع الحديد في يديه، ولكنها لا تذكر شيئا عن كسيلة، وما يستنتج من النصوص أن كسيلة لم يتعرض للاعتقال، حيث ظل موجودا في جيش عقبة حرا طليقا يتصرف كما يشاء، غير أن القائد أهمله ولم يحفظ له نفس المكانة التي من المفترض أن يحصل عليها باعتباره حليفا للعرب، وهنا أتى انتقاد أبي المهاجر له. أما قصة سلخ الأكباش فيمكن التحفظ في قبولها لسببين:

السبب الأول: يتعلق بالمصادر حيث نجد بعضها لم يشر إطلاقا إلى هذه الحكاية وعلى رأسهم ابن عبدالحكم، ولا يمكن تبرير ذلك فقط بالسهو والنسيان، فحدث مقتل عقبة يعد من الأمور الجليلة التي لا يمكن إهمالها، وإنما الراجح أن الرواية التي اعتمدها لم تذكر شيئا عن هذا التبرير .وكذلك لم يشر ابن عبدالحليم بدوره إليها إطلاقا، والذي بالمناسبة لا يذكر جميع المبالغات التي تنسب لعقبة سواء ما يتعلق بالكرامات أم ما ينسب إليه من عنف وقسوة غير معقولة، وهذا ما يعزز تحفظنا على هذه الرواية التي ظاهرها المبالغة الشديدة والوضع في التفاصيل[90].

السبب الثاني: من الصعب القبول بأن شخصية عقبة القيادية، التي عاشت في مجتمع قبلي وتعرف جيدا القيمة المعنوية والرمزية لشيخ القبيلة، تقع في هذا الخطأ الفادح، وما يستتبع أي محاولة للحط منها من كوارث، وكان أحسن العارفين بأن البربر يشبهون العرب في هذه النقطة بشكل كبير جدا، وبالتالي من الصعب أن يقدم على هذه الخطوة الساذجة.

صحيح أن شخصيته كان يغلب عليها النزعة العسكرية، ولكن في المقابل لا يعني ذلك غياب البعد السياسي كلية فيها، فتأسيس القيروان يدل على بعد النظر السياسي والحضاري للرجل وليس العسكري فقط،

واستقدامه للبربر في جيشه يدل على ذلك، أيضا تعامله السلمي مع القبائل التي لم تحمل السلاح كما رأينا في حملته على المغرب الأقصى ،فالرجل كان عسكريا بامتياز ولكن كان أيضا سياسيا.

وما يعزز رأينا في أن كسيلة كان حرا طليقا أثناء مرافقته لحملة عقبة، أن جل المصادر تتحدث أنه تلقى رسائل من قبل الروم، فلو كان سجينا أو معتقلا لما تسنى له مراسلتهم، خاصة أن الحراسة ستكون مضروبة عليه، وما يعزز كذلك هذا الرأي أن هذه الروايات نفسها تذكر أن أبا المهاجر لما لاحظ إهمال عقبة لكسيلة وإهانته، حسب الرواية طبعا، انتقده وطلب منه مراقبته والاحتياط منه واعتقاله [91]، غير أن القائد لم يهتم بذلك وتركه يتحرك بكل حرية، مما سهل عليه مأمورية عقد تحالف مع الروم، وفي المكان المناسب فر من الجيش ليلتحق بالتحالف الجديد القديم[92].

ومن أجل فهم أشمل لحركة كسيلة وقبيلته أوربة يجب أن نلاحظ المنطقة التي وقع فيها الحدث، وهي منطقة نوميديا، حيث كانت من أهم المناطق تأثرا بالحضارة الرومانية، ومعايشة لنموذج التحالف مع بعض زعماء البربر والرومان، الذي كان في بعض الأحيان يضمن الاستقرار وفي بعض الأحيان كان يؤدي إلى قيام الثورات بسبب اختلافات معينة. والأساسي في كل ذلك أن هذه المنطقة ورثت تقاليد سياسية قديمة، قائمة على التحالف مقابل خدمات متبادلة[93]، وأي خرق لهذه المعادلة كان يؤدي مباشرة إلى الصراع و الفوضى.

فلو رجعنا إلى أحداث الفتوحات سنجد أن العرب لم يواجهوا البربر في البداية وإنما البيزنطيين فقط، لذلك لم نلاحظ أي تحرك من جانبهم ضد العرب، لأن الحركة لم تستهدفهم مباشرة. وفي المقابل ستسجل أول مواجهة معهم أثناء حملة أبي المهاجر الذي استطاع بحنكته السياسية أن يفهم طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين البربر والبيزنطيين لذلك حاول أن يستفيد منها بتحويل اتجاهها نحو العرب، عن طريق التحالف مع زعماء البربر لتحييدهم ومحاولة استقطابهم بهذه الطريقة، لكن التصادم العنيف سيكون مع عقبة الذي ارتأى عدم مراعاة تلك التقاليد، التي كانت تعبر عن نظام قيمي مرتبط بالحضارة الرومانية، بل تحطيمها كليا وإحلال النظام القيمي الإسلامي محلها، وهنا تحرك كسيلة لمواجهة الخطر المحدق به وبنظامه القيمي، ولذلك اعتبر انتصاره انتصارا للنظام الحضاري الروماني[94] أكثر منه انتصارا للبربر الحاقدين على عنف عقبة.

ب. القضية الثانية ، دخول عقبة المغرب الأقصى :

في دراسته النقدية لكتاب ابن عبدالحكم "فتوح مصر والمغرب" خلص روبير برانشفيك إلى القول "إن حملة عقبة لم تتجاوز المغرب الأوسط، وفي أحسن الأحوال إلى حدود وهران ووادي شلف "[95]. وقد وجد لهذا الرأي أنصارا منذ تلك الفترة إلى الآن، فنجد كل من شارل جوليان و عبد الله العروي يوافقان رأيه،حيث يجزم هذا الأخير بذلك رغم اطلاعه على الوثيقة التي نشرها بروفنصال حول فتح العرب للمغرب لابن عبد الحليم، ويرى أنه "إذا حدث توغل فإنه كان محدودا عبر توجيه عقبة لبعض السرايا إلى ما وراء نهر ملوية، لكن لا يوجد دليل قاطع على كونه استولى على المنطقة فعلا" [96]..

أما في الجانب الآخر يبرز ليفي بروفنصال الذي انتقد هذا الرأي بشدة، وأرجعه إلى "عدم اطلاع برانشفيك على المصادر الجديدة المكتشفة وخاصة " البيان " لابن عذاري في نسخته الكاملة الجديدة، التي عوضت النسخة القديمة المكتشفة والمحققة من لدن دوزي،التي كان ينقصها قطعة كبيرة في أولها بسبب خرم في مخطوطة ليدن التي اعتمد عليها دوزي"[97]. بالإضافة إلى ما ظهر من مصادر كانت مختفية وعلى رأسها رواية عبيد الله بن عبد الحليم التي حققها ونشرها ليفي بروفنصال، وكذلك كتاب الرقيق القيرواني "تاريخ افريقية والمغرب"، الذي حققه ونشره اولا المنجي الكعبي سنة 1967م، وأعيد تحقيقه بشكل أفضل من قبل عبد الله الزيدان وعز الدين عمر موسى، هذه المصادر فصلت بشكل كبير في أعمال عقبة وخاصة في المغرب الأقصى مما يجعل نفي وقوعها أمرا صعبا جدا.

ومن الدلائل التي يعتمد عليها بروفنصال للتأكيد على صحة رواية هؤلاء وخاصة ابن عذاري، تأكيده على دور البيئة المحافظة والمنغلقة لسكان المنطقة في الحفاظ على الرواية الشفوية لزمن طويل،" فمن المؤكد أنه في بيئة محافظة مقفلة كالبيئة البربرية في جنوبي مراكش-حيث لا زالت ذكريات دعوة محمد بن تومرت وحركة الموحدين حية يتناقلها الناس- ألا تتلاشى ذكريات حلقات الفتح الإسلامي لهذه النواحي حتى زمن ابن عذاري"[98]

وتعد قصر المدة التي قضاها عقبة في حملته الكبرى الحجة الأساسية التي يعتمد عليها هؤلاء لنفي وقوع الحادثة،"فالمدة التي جال فيها المغرب عند قدومه في المرة الثانية لا يمكن أن تتجاوز السنة وبضعة أشهر، وتبدو هذه المدة بإمكانيات التنقل في ذلك الوقت غير كافية للتجوال في كامل بلاد المغرب الأوسط والمغرب الأقصى انتهاء إلى المحيط "[99].

الملاحظ على أصحاب هذه الحجة أنهم يعتمدون فقط على الرواية التي تجعل بداية حملته في سنة62هـ ونهايتها في سنة 63هـ، ولا يلتفتون نهائيا إلى باقي الروايات التي تجعل نهاية حملته ودخول كسيلة القيروان سنة 64هـ[100]، والرواية الأخرى التي تقول بأن دخول كسيلة القيروان كانت سنة 65هـ[101]. هذا جانب، ومن جانب آخر نجد عند ابن عذاري نصا هاما يجعل المدة التي قضاها في حملته ثلاث سنوات،"جال فيها المغرب يجاهد في سبيل الله"[102]

وقد انتبه سعد زغلول لهذا الإشكال حيث لاحظ أن معظم الباحثين خضعوا بشكل أعمى للرواية السابقة، دون نقد أو حتى استقراء لجميع النصوص ومن تم الخروج برواية أقرب إلى الانسجام. وهذا ما حاول القيام به، معتمدا على رواية ابن عذاري السابقة، فخلص الى القول إن عقبة استشهد في أواخر سنة 64هـ/684 م أو أوائل سنة 65هـ/684م[103]. وبذلك استغرقت حملته سنتين في حالة تسليمنا بالرواية التي تجعل استشهاده في سنة 63هـ، أما إذا أخذنا بالرواية التي تقول باستشهاده سنة64هـ فتكون قد استغرقت ثلاث سنوات، وربما أربع سنوات إذا اعتمدنا على إحدى روايات ابن عذاري التي تجعل عودته إلى القيروان سنة 61هـ[104] واستشهاده في أوائل سنة 65هـ. وهذه الرواية ستكون لها مصداقية إذا أخذنا في الاعتبار ما تقوله بعض المصادر من مسارعة مسلمة إلى الاعتذار إليه، عندما وصل إلى مصر في اتجاهه إلى القيروان، والمصادر تؤكد بأن مسلمة توفي سنة 62هـ، فليس من المستبعد أن يكون قد لقيه في سنة61هـ، وبالتالي تبطل الحجة التي اعتمدها البعض في نفي وقوع الحملة، وإن كان ورود تفاصيلها في بعض المصادر يجعل نفيهم مجرد لغو.

القضية الثالثة، تقييم نتائج حملة عقبة على المغرب:

خلص مجموعة من الباحثين في دراساتهم إلى القول، بأن حملة عقبة رضي الله عنه لم تكن لها أية نتائج إيجابية، بل انعكست سلبا على كل الانجازات المحققة سابقا، "فلم يضف أية أراض جديدة لولاية إفريقية بل كان على العرب أن يتركوا كل الولاية وأن يخلوا القيروان ذاتها نتيجة لهزيمته السابقة، فهي بالتالي حملة انتحارية"[105]، فلم يعد لها الإعداد الكافي من الناحيتين المادية والمعنوية، فضلا عن كونها"

افتقرت الى الخطة المحكمة، وتخللتها ضروب العنف، والقسوة والإهانات، ومن ثم عادت بحصاد سيء الثمار، وحملت المسلمين على إخلاء قاعدة القيروان والجلاء من افريقية".[106]

بيد أن المتأمل الجيد للأحداث سيجد أن هذه الأحكام ارتكزت أساسا على البعد السياسي والعسكري، وليس على البعد العام والشامل وهو البعد الحضاري.

فإذا أردنا أن ننطلق من هذا الجزء المتعلق بالعنصر السياسي فإننا سنجد أنفسنا متفقين على أن الهزيمة العسكرية أمام كسيلة كان من نتائجها المباشرة خروج المنطقة المفتوحة عن السيطرة الإسلامية، ودخوله للقيروان كان إنهاء للوجود السياسي للخلافة الإسلامية هناك.

أما إذا استعملنا المنهج الشمولي في دراستنا لنتائج هذه الحملة، فإننا سنجد أنفسنا نختلف كليا مع هذا الرأي، وسنجد أن حملته كانت لها عدة منجزات:

أولها يتمثل في الإنجاز الجغرافي، فلأول مرة سيكون العرب على دراية تامة بحدود المنطقة، وهذا ما لم يتوفر لهم سابقا، فكانوا يتحركون دون أدنى معرفة بحدودها وبكثافة سكانها وتنظيماتهم الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وهذه الأمور كلها أصبحت الآن في متناول المسلمين، والتي ستساعدهم بشكل واضح في تحركاتهم المستقبلية وفي وضع خطط الانتشار.

ثانيها يتمثل في استقطاب قبائل بربرية ودخولها في الإسلام، وآخر مثال على ذلك أمير قفصة الذي قام بتحرير أسرى المسلمين لدى كسيلة، وإرسالهم إلى القيروان، وقبل ذلك مسارعة بعض القبائل الزناتية في المغرب الأقصى لنجدته وفك الحصار عنه ومساعدته في الانتصار على خصومه، بمعنى أنه نجح في التواصل مع بعض القبائل البربرية في المغرب الأقصى وإقناعهم بأهمية انخراطهم في المشروع الحضاري الذي يبشر به.

أما أهم منجز على الإطلاق الذي كان له أثر كبير في تيسير أمر الفتح لاحقا خاصة في المغرب الأقصى، فيتمثل في بناء مساجد في بعض الأماكن التي دخلها. فتذكر المصادر أنه بنى مسجدا بمدينة نفيس[107]، وآخر بدرعة[108] وإيجلي بالسوس الأقصى [109] وكذلك بماسة[110]، ولابد أنه ترك هناك من يقوم بأمر المسجد والدعوة، فلا يعقل أن يبني مكانا للعبادة دون أن يترك هناك من يعلم البربر أمور دينهم وأصول عقيدتهم ولغتهم الجديدة. والدليل على ذلك أن المصادر تتفق على أنه ترك أحد أصحابه

يسمى شاكرا بإحدى المناطق، عندما كان راجعا من حملته، وقد عرف هذا المكان برباط شاكر عند الكتاب وهو حاليا يعرف بسيدي شيكر في جهة مراكش حاليا.

لنخلص إلى القول إن عقبة قام ببناء بعض المساجد وترك أصحابه هناك للإشراف على تنفيذ مشروعه، القائم على مخاطبة البربر مباشرة والاختلاط بهم والتواصل معهم وإقناعهم بأهمية التحاقهم بالحضارة الجديدة والمساهمة في بنائها وتطويرها من الداخل وبالتالي أسلمة [(111)] المنطقة. لذلك لن نبالغ إذا قلنا إن حملته استطاعت أن تضع اللبنة الأولى والأساس في رسوخ الحضارة العربية الإسلامية هناك، وأن الفشل السياسي الذي انتهت إليه الحملة واكبه نجاح حضاري مهم، (استمر حتى بعد وفاته حيث اتخذ قبر عقبة مسجدا ومزارا يقصده الحجاج من كل مكان[(112)])، ظهرت نتائجه بشكل واضح في سهولة فتح المغرب في عهد موسى بن نصير وفتح الأندلس، التي انخرط فيها بربر المغرب الأقصى بشكل فعال.

ومن تم يمكننا القول إن الأحكام السابقة التي استنتجها الباحثون ناتجة أساسا عن اعتمادهم على منهج التجزيء في دراسة ظاهرة الفتح، بدل المنهج الشمولي الذي يدرس الظاهرة من جميع النواحي، ويسمح لنا في النهاية من تقرير أن الحملة التي قام بها عقبة كانت فاشلة أم ناجحة.

الهوامش

(1) تجلى ذلك في حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح27ه ، ومعاوية بن حديج سنة45ه

(1) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في المغرب، دار النهضة بيروت، 2003، ص : 40

(2) عمر فروخ، العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 2، 1401هـ -1981، ص :65.

(3) انظر الناصري،الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى،ج1،منشورات وزارة الثقافة والاتصال،الدار البيضاء،ص92، الباجي، الخلاصة النقية، مخطوط تحت رقم باج 920.61 ،كلية الاداب العلوم الانسانية،الرباط، ص :5

(4) يبدو أن أبا المهاجر عاد إلى تفعيل مبدأ المؤلفة قلوبهم الذي كان أوقفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد رأى أن الواقع في بلاد المغرب يقتضي ذلك، أما عقبة بن نافع فقد تشبث بموقف سيدنا عمر واقتنع أن ليس هناك ما يستدعي إعادة تفعيله في بلاد المغرب.

(5) Gautier, les siecles obscurs du Maghreb, édition Payot, Paris 1927, p.244

(6) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ،مجلد4،دار صادر ،بيروت1997، ص107، النويري،نهاية الأرب في فنون الأدب،جزء تاريخ الغرب الاسلامي في العصر الوسيط،تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد،دار النشر المغربية،الدار البيضاء ، ص193، الناصري، المصدر السابق، ص193

(7) Yves mederan, les maures et l’afrique romaine, édition école française de rome, 2003. P.973.

(8) يعد تحالف مسينيسا مع الروم للقضاء على الحضارة الفينيقية أحسن مثال على ذلك.

(9) Gautier, les siècles obscurs, p.243.

(10) Robert brunschvig, études sur l’islam classique et l’afrique du nord, london 1986, P .138.

(11) عبدالله العروي ، مجمل تاريخ المغرب، ج 1،المركز الثقافي العربي،بيروت،ط6 ص :123

(12) ليفي بروفنصال، نص جديد عن فتح العرب للمغرب،مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد،عدد2، ص : 196.

(13) ليفي بروفنصال، المرجع السابق .ص: 201، لقد قمت بزيارة إلى قرية سيدي شيكر حيث يتواجد ضريح شاكر وحاولت معرفة الرواية الشفوية الموروثة عند سكان هذه القرية حول حقيقة شخصية صاحب الضريح فأكدوا لي أن الضريح يعود إلى أحد الفاتحين الذين مروا على هذه المنطقة، ومنهم من ذكر أنه كان أحد أتباع قائد الفتح عقبة بن نافع تركه هناك لدعوة الناس.

(14) حياة اعمامو، إسلام التأسيس ببلاد المغرب،دار الجنوب، تونس،2001، ص: 56 .

[15] الناصري، الاستقصا.ج1، ص:96.

[16] المالكي، رياض النفوس ،تحقيق بشير البكوش،دار الغرب الاسلامي،بيروت، ص: 46 .

[17] ابن عذاري، البيان.ج1،ص: 30 .

[18] سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي ج1، ص: 205.

[19] ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب،ج1، ص:31 حيث يذكر أن:"وصول عقبة إلى المغرب كان سنة 61هـ". وقبله ذكر ابن تميم أنه"دخل دخلته الثانية سنةإحدى و ستين". طبقات علماء افريقية، تحقيق علي الشابي،الدار التونسية للنشر،1968 ص:31. أما محمود مقديش فيذكرها في إطار تعداده لسنوات دخوله إلى المغرب فيقول:"والمرة الثالثة سنة إحدى وستين". نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ،دار الكتاب العربي،بيروت،1974 ص:218.

[20] ابن عذاري، البيان، ج1، ص: 20 .

[21] عبد الواحد طه، الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال إفريقيا،المدار الاسلامي،ط1،بيروت،2002 ص 118

[22] موسى القبال، المغرب الإسلامي،المؤسسة الوطنية للكتاب،ط3،الجزائر،1984 ص: 47، حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب،مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة، ص 203 .لقد وقع هذا الكاتب في تناقض حيث نجده يؤكد على الإنجاز الحضاري لعقبة وفي نفس الوقت ينفيه.

[23] البكري ، المسالك والممالك، ج2 ،تحقيق جمال طلبة،دار الكتب العلمية،بيروت،2003 : ص: 346..

[24] ابن عذاري البيان ، ص : 27. ابن عبدالحليم، نص جديد، ص : 220.

[25] ابن عذاري، البيان، ص: 27.

[26] المالكي، رياض النفوس، ص :40.

[27] George marçais, la berbérie musulmane ,éd afrique orient 1991, p39



تاريخ المغرب البحري







عمر عمالكي

باحث في التاريخ المعاصر

تعددت مشارب الثقافة المغربية تبعا لتعدد الاصول التي تمتح منها ولا أدل على ذلك من تنوع الأجناس المكونة لشخصية هذه البلاد عبر العصور، غير أن عناصر مادية وأخرى لامادية اخترقت هذه الشخصية وصيرتها شخصيات في مكون جغرافي واحد. حتى غدا المغرب خليطا متجانسا احكم التنوع في وحدة فريدة قلما نجدها في مواطن أخرى من المعمور. ومكنت هذه الاصول من تشكيل روافد الهوية المغربية الراهنة. وفي مقدمتها نجد صدى البحر متجذر في النشأة والتكوين والإمداد الدائم بكل حديث وطريف للمغرب المفرد[113]. وقبل تبني أي توجه في هذه المقاربة لابد من وضع إطار مفاهيمي حتى يتبين المغزى من أصول الثقافة البحرية. وذلك بتقريب معاني الأنشطة البحرية السليمة من العوارض السلبية من قبيل؛ الأنشطة المحظورة، والقرصنة

---

[113]) كان هذا المقال في الاصل جزء من أطروحة "البحر في ذهنية فقهاء المغرب" رسالة مرقونة ، كلية الآداب والعلوم الانسانية جامعة محمد الخامس أكدال الرباط 2006.واضيفت إليه افكار أخرى جديدة لإبراز الاصول البحرية في الثقافة المغربية.

ولصوصية البحر والغنيمة ثم الجهاد البحري إلى جانب التجارة وغيرها مما يستدعي توضيح المعاني ورصد تطورها التاريخي حتى لا تختلط الأفكار، ونتعظ بما كانت عليه الحياة اليومية في مراسي المتوسط كنموذج لاستقصاء فكرة الماضي[114] بإبراز الفوارق واستخلاص النتائج والتأسيس للمستقبل[115]. من أجل تهييئ افق بحري للمغرب.

وفي سبيل بلوغ ذلك نستحضر هنا الفاصل بين مفهومي الثقافة والحضارة، لتوضيح المقصد من عملنا.

الثقافات[cultures] أو إن شئت قل الحضارات[civilisations].إذ تعتبر الثقافة عاملا منظما للمكان، شأنها شأن الكيانات الاقتصادية، ومن أسباب ذلك أن الثقافة تصدر مدى زمني لا نهائي يتجاوز اشد التجاوز عمر العوالم الاقتصادية، وهي أقدم شخص في مسرحية تاريخ البشر. فالثقافة أو الحضارة تمثل في تاريخ العالم. وهي في قلب كل حضارة ترسخ القيم الدينية، كحقيقة تقوم عليها الشواهد منذ أزمان بعيدة[116]. وتوفر توازن ضروري بين القيم الروحية والقيم المادية، بما يسمح بتطوير استعدادا اجتماعي إرضاء (القيم الروحية، والذكاء والأخلاق والجمال شرط توفر الانسجام)[117]. والثقافة يجب أن تمتلك القوة للوصول إلى تحقيق أمل كل أفراد المجتمع الذي تمثله. بشرط أن تدعم الرغبة في السعادة وهو شرط يمس كل مجتمع و كل فرد بطريقة مختلفة، وهو ما يمكن أن يبرز قيمة الثقافة المعاصرة التي أصبحت مرهونة بمفاهيم القوة، والسيطرة والاستحواذ[118]. وأما الحضارة فهي نسق متعدد الزوايا، يتضمن حقائق سياسية واقتصادية ودينية وتقنية، وأخلاقية و اجتماعية[119]. وأنها مجرد صيغ شكلية واستعراض خارجي[120] وهي كذلك [الحضارة] أمر خارج ونفعي ذو عدة أوجه غريب عن قيم الوطنية[121]. و تتجاوز الحدود الوطنية؛ بينما الثقافة محدودة في الزمان والمكان ومتداخلة مع الهوية الوطنية. وهذا الاخير ما نود إبرازه في الاصول الثقافية للبحرية المغربية والتي أخذت في ترسيخ معاني ذات أبعاد كبيرة.

---

[114])C.E. Dufourcq, La vie quotidienne dans les ports méditerranéens au moyen âge. Provence, Languedoc, Catalogne. Paris 1975, ch. 6, pp. 124-48 "La guerre sur mer et ses corollaires: L'esclavage et le cycle des représailles"

[115]) عمر عمالكي، البحر في ذهنية فقهاء المغرب، رسالة السلك الثالث، نوقش بجامعة محمد الخامس كلية الآداب 2006.

[116])Braudel, Fernand. civilisation Matérielle, économie et capitalisme. XV°-XVIII siècle. le temps du monde .tome3 , Armand colin .paris 1967,p72

[117] Huizinga, Johan. Incertitudes ,essai des diagnostics du mal dont souffre Notre temps….p38.

[118] H. bergerie. ,le phénomène, Nouvelle ,Histoire. p167.

[119])التفسير الأنثروبولوجي للثقافة/ مجلة عالم المعرفة ،ع ،سنة، ص .

[120]) في التقليد الاكاديمي الفرنسي

[121]) عند الالمان

وقد يكون من الصعب تطبيق المقاييس المعاصرة على الماضي إذ أن للتاريخ حقائقه. فإذا كان يتعلق الأمر بتحديد المفاهيم، فإنه يقتضي سعي منهجي لتفادي المزالق، حيث أن مفهوما أو ظاهرة أو واقعة علمية لا يمكن تعريفها إلا موضعيا وليس بشكل شمولي كوني، وتحديده في الزمان والمكان بالرجوع إلى نظام متناسق لضبطها و أن تكون كل كلمة ذات معنى تؤدي دورا. والمطمح الثاني أن نرسم على منهاج عملي لفهم أدوار البحرية في تاريخ المغرب.

إن استحضار البحر في الهوية المغربية ليس من قبيل التخمين الفكري أو منازعة ومزايدة في السجال الهوياتي للمغرب بل هو من صميم الأصول التي ارتكز عليها واستمرار البلاد عبر الحقب والازمان. لقد شكل البحر وأنشطته منجما غنيا بما حملته الافلاك والسفن من افراد وافكار وسلع اضفت بعدا تجديديا على البلاد وفرضت عليه نبذ الانغلاق و ولوج العالمية. الممتد من الثقافة الاغريقية والحضارة الرومانية ثم البيزنطية ثم الفتح الاسلامي والحضارة العربية على التوالي، أسهمت إلى اليوم بنشاط بحري إلى جانب أخريات اختلفت درجته بين القوة والضعف والسطوع ثم الافول[122]. ونأمل أن لا نتيه بين أساليب الكلام ومصطلحاته وأن يكون استمدادنا للثقافة البحرية في المغرب أصلا نحوم فيه دون أن يحجب عنا الاجتهادات القائمة[123].

يمكن أن نعبر عن هذا الإشكال انطلاقا من تجارب المغاربة في العصر الوسيط والحديث، فعقلية المجتمعات تختلف في نظرتها إلى المجالات المائية التي هي حصر على المغامرين، أو الراغبين في التأثر والاغتناء، فالمغرب الذي يطل على بحرين عظيمين طبعا تاريخه بطابعهما الخاص، فهو جزء من المتوسط والأطلسي فلا تاريخه في منأى عن هذه التأثيرات الحضارية وموروثاته، التي تتغير ببطء كبير. مما خلق ثقافة مغربية بعادات ارتياد البحر سجل تصورات خطية في تاريخ قد تكون متساوية مع التأثيرات الحاصلة في قطاعات أخرى ومناطق أخرى، فأرخى بثقله على الحضارة مما أكسبها قوة كبيرة في الذهنية المغربية. باعتبار احتلال البرتغال للسواحل المغربية، رجة قوية عدت عقابا إلهي كان له امتداد على الزمان وإن اقتصر مكانيا. ليعيش المغرب حينئذ حالة من النفور العام وبروز قيادات دينية واجتماعية تروم إصلاح المجتمع وقيادة الجهاد[124].

علما أن الذهنية والعقل الجمعي للمغاربة يكاد يتفق على كون الجبهة البحرية مقوم أساس للدولة المغربية، أمام التقلبات السياسية والعسكرية ثم المجابهة الحضارية. بما يرفعه أن يصير مكون

---

[122] -john Davis (L.T.col), the History of second queens Royal Regiment, vol1 the English occupation of tangier From.1661.To 1664 London.

[123] انظر عمر عمالكي "البحر في ذهنية فقهاء المغرب" ، م س، ص 102.103

[124] Abdelmadjid kaddouri "les places portugais au Maroc espaces de relais et zones de contact un portières"op. cit. pp 95 96.



للوجود. ناهيك عن الاثار العالقة في الذهنية من كون الغزاة لهذا البلد إنما طرقوها من الواجهة البحرية. وعليه فقد بنيت شخصيتنا وهويتنا على عنصري الصحراء والبحر. فلا يذكر بلدنا إلا بطارق بن زياد وفتوحاته من لجج البحر وابن خلدون الذي خاض بأسفاره نحو المشرق طرقا برية وبحرية دفع ثمنها بموت اسرته وبنيه في يم البحر المتوسط وابن بطوطة الذي قطع شطرا من المعمور أغلبه عبر السفن شرقا وغربا[125] وقبله تحركات استنقاذ الاندلس. وفوق هذا وذاك اشتهر المغرب برياسه و قراصنته الذين سخروا كل إمكانياتهم للسيطرة على الواجهة البحرية، وإقامة قرى ومدن خاصة على غرار المدن التي جاؤوا منها، فأعادوا هيكلة الجهاد البحري الذي تحول الى نشاط لكسب العيش[126] وصيد السفن بين البحر المتوسط والمحيط الاطلنتي. لهذا اعتبرنا البحر جزء من الهوية المغربية بشكل عام[127]. فقد حضر البحر في الصراع من أجل استخلاص الاندلس وحمل على عاتق المغرب ثقلا وأضاف مسؤولية وجودية للعرب في الاندلس بصفة عامة. ولهذا قال شاعرهم:

وراتعين وراء البحر في دعـة ..... لهم بـأوطـانـهـم عـز وسلـطـان

أعـنـدكـم نبـأ مـن أهل أنــدلس .... فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم .... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان[128]

لقد شهدت المنطقة المغاربية توغل الإيبيريين ونشر الرعب في ثغوره المتوسطية والأطلسية، فتأثر جل قاطنيه بهذا الصراع الممزوج بين الاقتصادي والديني فأصدرت النخبة المثقفة أحكاما ذات قيمة تاريخية تعبر عن روح عصرها وخلافاته[129]. فأسدل حيرة على أهل البلاد ولم تدري أألندلس ترثي أو ثغورا أو قبائل أخذت تنصر وأخرى تشهد مناكر يمارسها أهل السفن والبحارة فركبها الخوف إشفاقا، وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر. أو علماء رفضوا العمل في السفن واعتبروها من علامات الساعة :

---

[125]) انظر رحلته، تحفة النظار وعجائب الامصار.
[126]) غيرمو غوثالبيس بوستو، الموريسكيون في المغرب، ترجمة، مروة محمد ابراهيم، غرناطة 1991.ص7، 8.
127) راجع عبد الرحمان بن زيدان، معالم نظم الدولة. أو العلائق السياسية للدولة العلوية، مخ خ ح، رقم31147ز
[128]) أبيات من قصيدة لابي البقاء صالح بن يزيد الرندي المعروفة ب (رثاء الاندلس)
[129]) المقري التلمساني نفح الطيب ، مرجع سابق ص 33.يقول فيه:
وتوهمنا أنه ليس في الوجود أغوار ولا نجود إلا السماء والماء وذلك السفين مع ترقب هجوم العدو في الرواح والغدو لاجتيازه على عدة من بلاد الحرب دمر الله سبحانه من فيها وأذهب بفتحها عن المسلمين الكرب لا سيما مالطة الملعونة... فزادنا ذلك الحذر الذي لم يبث ولم يذر على ما وصفناه من هول البحر قلقا.

" خلقنا لهم مما يماثل الفلك المشحون ما يركبون في البر، والذي يماثل الفلك المشحون في كبره وكثرة حمله هو بابور السكة الحديد. كأنها الأعلام طولا وعلوا... أما ما حدث في زمننا فالسفينة تحمل الآلاف من الناس ومن القناطر المقنطرة من البضائع ثم السفن التي كانت في زمانهم أيضا مع كبرها وحملها الكثير من الركاب والأثقال كانت تجري في البحر جريا حثيثا بالرياح"[130].

اعتبر نمو الاختراعات سبب تعطيل الإبل** وإذا العشار عطلت** عن دورها بما يصرح بحلول النقم.

اجمالا شحنت عقلية علماء المغرب بالتجارب الإنسانية فحاولوا مطابقتها للنص الشرعي، وانطبع عليها الخوف من البحر الذي تسيطر عليه أوربا لما تأتي لها التحكم في طرق البحرية العالمية، ولهذه الأسباب تطير المغربي من البحر لكونه مبعث كل البلايا التي أصابت المجتمع المغربي. واستنكف الفقهاء عن العمل البحري، لأهوال وأخطاره أو من الخوف الجاثم على المخيلة الشعبية والعالمة أو لحقارة مهنه.

إننا إذ نعتمد على إحدى أصول الثقافة العربية الإسلامية لنتلمس موضوعا شائكا. لأن الثوابت المعتمدة على الغيب قلما تتغير بتغير الزمان والأشخاص الذين يتفاعلون معها، فالمسلم جعل من كل ذي عظمة بحرا أو مجالا شاسعا لا يمكن بلوغ مقاصده أو استيفاء فصوص العلم الإلهي الكثيرة، لكونه بحر لا يقدر إنسان مهما أوتي من سعة العلم و المعارف أن يحيط به. ولكونها معرفة يقينية أولا وأخيرا.

غير أن البحر في المتخيل الرسمي تظهر معالمه في اتجاهين، سياسي وأمني؛ بمعنى أن البحر يكون إما أداة تستخدم للتوسع أو مصدر أخطار. أما الاتجاه الثاني، وهو المنحى الاقتصادي الصرف بما يوفره من موارد جديدة[131]. على أن البحر المغربي وفعله في التاريخ المغربي تتقاسمه دوافع:

- ثقافية
- اقتصادية
- جغرافية

---

[130] أحمد بن محمد بن الصديق الغماري الحسني، مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية القاهر مكتبة القاهرة الطبعة الثامنة 2000 ص. ص 11-12.

131) عبد المجيد القدوري، البحر في المتخيل المغربي، الرباط ،مطبعة عكاظ، 1998 ، ص 29.

- اجتماعية ثقافية
- دينية

ومن بين هذه الثقافات البحرية نذكر في هذا الاطار مجموعة من الكتابات التشريعية والتقنية وتراخيص الابحار والعقود المالية، وجغرافية السواحل والبحار.

الانتاج التقني :

انعكست صورة البحر في ما نجده في جذور ثقافة النخبة المغربية، التي ارتبطت بنظرة ذات ابعاد وأصول كثيرة كما هو شأن أغلب النوازل والأجوبة الفقهية وبالتالي إعطائها صفة التقرير، وتتسم بالخوف والجمود على أقوال الأولين، وآراء من دفعتهم الحاجة إلى معالجة البحر عن قرب للحج[132] أو للتجارة، أو من رأوا فيه متنفسا كالمتصوفة. على أن آخرين إنما دفعهم إلى الحديث عن البحر، لما علموا من فشو الجهل لدى أغلب الرياس وغلبة تآلف ملفقة أو أراجيز مفرقة لا تخدم سلامة الرياس، مما يحتم وضع تآلف مضبوطة لمسائل البحر وكيفية سير السفن[133]، ومن جهة ثانية عملت الخبرة المحلية تبديد المخاوف وانارت العملين وارشدتهم لطرق حماية السفن وحملت القباطنة للمسؤولية[134] أو بدوافع الغيرة على أهل هذا الميدان وتقديم السند المعرفي لهم. يقول عبد الله ميكاني الرباطي:

" إنه لما جلست ... من العمل في البحر نصحني بعض الإخوان من أهل الرباط بوضع كناش لهذا الأمر مما يعرفه في أمور البحر"[135]

فالمعرفة البحرية عند المغاربة بحارة أو من لهم صلة به لم تنعدم تماما كما تبين الكنانيش المؤلفة في هذا الميدان، والتي تعتبر أية في الدقة والحساب وعلى اضطلاع تام بعلم الرياضيات واللوغريتم[136] وهيئة الرسو وأحوال الجو، وغيرها من المعارف الدقيقة التي تساعد في الإبحار

---

[132]) أغلب هؤلاء الفقهاء أفصحوا عن ضرورة ركوبهم البحر لقضاء المناسك. منهم التادلي إبراهيم صاحب زينة النحر، وأيضا أحمد بن القاضي الفونتي السوداني وغيرهم. فكانت ديباجات مؤلفاتهم تحمل هذه العبارة: "فلما خرجت للحج وانتهت إلى البحر" شكاية الدين المحمدي المقدمة...

[133]) سليمان ابن أحمد سليمان المهدي، ***العمدة المهدية في ضبط العلوم البحري***. تحقيق إبراهيم خوري دمشق. مطبوعات مجمع اللغة العربية 1390-1970م.ديباجة الكتاب.

[134]) سليمان قيودان حلاوة ***الكوكب الزاهر في علم البحر الزاهر*** طبعة حجرية الواجب على كل قيودان حفظ السفينة والإحتزاز الكلي من الخطر الموجب لإتلاف السفينة بسبب عدم ضبط الحساب ويخشى من أن تصل السفينة إلى أحد إلا مكان قبل تمام حساب المسافة ص 42.

[135]) عبد الله ميكاني الرباطي: ***لواقع الأسرار في حديث البحر والسفر وصناعة الرياس***، مخ خ ع ص مجموع رقم 163.

[136]) هناك تآلف مهمة خاصة بعلم البحر والملاحة البحرية مخطوط تأليف في الملاحة البحرية بالخزانة الحسنية رقم 7817. وأيضا مخطوطة إبراهيم التادلي زينة النحر م و الرباط رقم د 1347 وأيضا كتاب حساب اللوغاريتم علم خاص بالبحر كتاب مطبوع بالخزانة الحسنية.

والخروج من البحر، أو الخوض فيه كمحاولة وضع جداول وأوقات مقامته بالآلات البحرية والفلكية كالإسطرلاب والبوصلة والكامل وغيرها من الأدوات الخاصة.

إنتاج تشريعات بحرية:

في مقدمة الانتاجات الثقافية المتأصلة في المجتمع المغربي نشير إلى مرجع مؤطر للسفر عبر الآليات البحرية أو استئجارها من مالكين محتملين. ونقصد كتاب أكرية السفن لأبي القاسم خلف ابن فارس القيرواني[137] وهو من بين القلائل الذين اهتموا بتعقب المسارات الملاحية من خلال تدوين النزاع بين ارباب ورياس السفن من جهة وبين التجار والنوتية من جهة ثانية وضع حلا للخلافات الناشئة بين التجار ومالكي القطع البحرية. وعمل على وضع قانون فاصل لقضايا النقل وكراء المراكب للنشاط التجاري البحري في المتوسط من خلال الفقه المالكي ويمكن وصف هذا الكتاب كأحد أقدم المتون في فقه كراء السفن من الناحية التاريخية، باعتباره وثيقة تاريخية فريدة وغنية بالمعطيات الاقتصادية والاجتماعية، المتصلة بالمعاملات والعقود، والاجتهادات التي تستدعيها التطورات الطارئة، في فقه الملاحة، والحديث عن السفينة في المذهب المالكي وأغلب الظن أن دواعي تحريرها إنما جاء لتقنين عملية كراء السفن أو كراء خدمات النقل من الاوربيين من قبل التجار المسلمين، أو اعتماد سلاطين الدول المغاربية على خبرة القطع البحرية الاجنبية في العصر الوسيط لما كانت تلجأ إلى استئجار سفن المسيحيين [أركون والجمهوريات الإيطالية] بعد انتصار المغاربة في معركة العقاب[138]، ونعزز ذلك بتلك الاتفاقات المبرمة بين أبي الربيع سليمان و ملك أركون ضد ملك غرناطة (ابن الحمر)[139] على كراء قدر بعد انتهاء مدة الخدمة بما يناهز "ألف مثقال عن الأربعة الأشهر الأخرى، مع دفع مرتبات الجند العاملين في المراكب بحارة كانوا أم جنودا"[140] واستمرت طيلة القرنين 13و14م. للحاجة الملحة للتجارة ونقل الاموال بين المراسي. وعبرت مختلف الاتفاقيات بتكليف القناصل باختيار وتحديد اسعار ومدة كراء السفن من طرف

137)ابو القاسم خلف ابن فارس القيرواني عاش في القرن الرابع الهجري، وقد اعتمد على هذا الكتاب كثير ممن اشتغلوا على دراسة التنقل والتجارة بين ضفتي البحر المتوسط، ودارسي المعاملات المالية. ومنهم كثير من المستشرقين والمغاربة.

138) سكتت المصادر المغربية التي أمكن الاطلاع عليها عن صفقات كراء الدولتين المرابطية و الموحدية للسفن النصرانية، وإن كانتا قد لجأتا إلى طلب المساعدة من الدول الإسلامية، لاستعادة سبتة من قبل المرابطين مع بني عباد في بداية هذه الدولة لكن وإبان قوة الدولتين، فإنهما اهتماما بصناعة وتأسيس الأسطول، ومكنهما من خلق قطع بحرية سرعان ما نالت أعلى المراتب ، ولا أدل على ذلك من طلب صلاح الدين الأيوبي من المنصور الموحدي المساعدة البحرية ، إلا أن هذا الوضع سيتغير مع 610 هـ/1212م عندما دخلت بلاد المغرب في دوامة من الصراعات السياسية والتجزئة المجالية.

139) الاتفاقية والمؤرخة في 25 محرم 709هـ/5 يوليوز 1309م ، البند 2 و3 على أن يدفع الملك أبا الربيع " ألفي مثقال عن كلّ مركب بمعداته وذخائره طيلة المدة (أربعة أشهر)"

140) Dufourcq (**Ch**.**E**), L'Espagne Catalane et le Maghreb, au 13 et 14eme siècle, P.H.F.1966, p 541.542.

الربان[141] مع اضافة شرط إعفاءها من ضريبة الخمس وبقاء أجرة الخدمة[142]. وفتحت هذه الاتفاقات أعين المغاربة على موارد مالية ومعطيات اقتصادية، مما أكسبهم خبرة وثقافة جديدة كقيمة مضافة وأبانت عن مفارقات في الاسعار من خلال الاحتكار الإيطالية[143] إذ أن أثمنة نقل الجنويين للسلع بين موانئ المغرب كانت أكثر من أثمنة نقل سلعهم بين جنوة وأول ميناء ترسو فيه سفنهم "نقل خمسة آلاف جرة من سبتة إلى بجاية يتطلب تسعين دينارا فضيا عن كلّ مائة جرة وهو ما يعادل ثماني عشرة ليرة. وفي سنة690هـ/1291م نقل أحد تجار جنوة القطن من عنابة إلى تونس بقيمة ثمان فلسات عن كلّ قنطار"[144] وقد دفعت الغيرة الاقتصادية المصطبغة بالصبغة السياسية والدينية للبحارة وتجار وساسة المغرب يؤازرهم الفقهاء في محاولة رد الاعتبار بسعيهم إلى التخلص من قبضة التجار الايطاليون ورغبة في تجاوز دور الوساطة وسبر أغوار البحر والتجارة واختراق الاسواق[145].

ثقافة المعاملات المالية:

عموم الكتب أعمدة الفقه والفتوى بالمغرب من العصر الوسيط إلى العصر الحديث اهتمت بقضايا التجارة وما يتعلق بها من؛ القراض، والشركة والضمان والمضاربة، على اتحاد الجهة وتماثل قضايا المعاملات. واجمع فقهاء المغرب أن لا ضمان على المتعامل بالمال على القراض؛ لأن المقارض أمين مقبول قوله من ضياع المال أو تلفه ما لم يثبت كذبه، ورفضوا تضمين العقد وإقرار الضمان فيه واعتبروه عقدا فاسدا؛ لأن فيه مزيدا من الضرر، فهذا فضلا عن أن القراض أصلا فيه غرر[146].

وبالإضافة لهذا سجل ابن رشد تلاعب الرياس بقواعد النقل بإقحام زيادات اثناء السفر في مراسي المرور مما يسمح بتلف البضائع وبللها وخرق قضية ضمان البضاعة من قِبَل أصحاب

---

[141]) أنظر معاهدات الحفصيين بتونس مع دويلة جنوة في المدة الممتدة بين 1236 و1343م، والتي نصت على أخذ السلطة الحفصية ثلث السفن الجنوية الراسية بالموانئ التونسية عند الحاجة، مصطفى نشاط، جنوة وبلاد المغرب من سنة 609هـ إلى سنة 759هـ، كلية الآداب وجدة، 1998م، ص184.

[142]) معاهدة 794هـ/1392م بين تونس والبندقية، عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب،ج5، مطبعة فضالة، المحمدية، 1986م، ص250-251.

[143]) مصطفى نشاط ، م س، ص 205.

[144]) نفسه

[145]) مُحمَّد الطويل، النقل والتنقل في المغرب خلال العصر الوسيط، كلية الآداب الرباط، ص239-240.

[146]) أبو الوليد مُحمَّد بن أحمد بن عبد الله بن مُحمَّد بن رشد القرطبي، شرح بداية المجتهد.، تحقيق: عبد الله العبادي، ط1، دار السلام ج 4.-1995م، ص1829-1835-1836. لمزيد من التفاصيل حول القراض، أبو عمر يوسف عبد الله بن مُحمَّد بن عبد البر الفهري القرطبي، الكافي في فقه أهل المدينة المالكي، ط1، بيروت، 1987م، ص384-385، عبد الرحمن الجزيري، كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، بيروت 1999م، مجلد 2، ص303.

المراكب بعدم تحميلها فوق الطاقة " سئل ابن رشد عن رجل حمل طعاما من الريف في سفينة فمر بأخ له في قرية أخرى، فقال: أخي أفي سفينتك فضل تحمل لي مائة إردب[147]؟ قال: نعم، وقد كان الأول حمل فيها خمسمائة إردب، فألقى قمحه فوق طعام صاحبه فانخرق المركب فدخل الماء من أسفله فأصاب منه نحو خمسين إردبا، وهو يعلم أنه لم يصل إلى طعام الرجل الذي كان حمله فوق طعامه الأول، فقال : أراهما في ذلك شريكين، قلت إنه لم يصل إلا إلى الأول، قال قد حملاه على وجه الشركة وخلطاه"[148] .

تتبع قضايا البحر في الثقافة الدينية حسب تقديرنا هو بداية لفهم الآليات المتحكمة في الذهنية المغربية وثقافة البحار. وهذا العمل يطرح أسئلة مركزية تحدد النظرة المحلية إلى المجالات البحرية وكل ما يرتبط بها. و تأثيرها على مرتادي البحر، وتعامل المذهب المالكي مع شؤونه، وليس الهدف هو الإجابة على كل التساؤلات المطروحة. بل فك شفرات مضمون الرسالة وما تحمله من بصمات لفهم الظاهرة التاريخية في جوانب كثيرة. إذ عمل المؤرخ هو المناقشة والتحليل والتركيب ثم التعليل وهنا يكمن دورنا دون استعراض كثير من الأقوال المجسدة للواقع[149].

ثقافة التراخيص:

كما حملت هذه العمليات إلى البحار المغربي وإلى أمناء المراسي تقنية البراءة[150] كوثيقة لتبرئة الذمة من الديون وحقوق الغير كأحدى الوثائق المفروض مصاحبتها خلال الاسفار البحرية. علاوة على السجال الذي اثير حول جواز السفر "البسبرط" الذي افتى بعض فقهاء البلاد بكفر أصحابه. والذي تحول إلى كتابة نماذج للجوازات[151]. ورخص الحجر الصحي والحمولة وغيرها. وكنانيش الامناء ودخل ومصاريف المراسي في كل المحطات المغربية.

الثقافة العسكرية:

ساهمت الحروب على المستوى العسكري في انتعاش وازدهار العمليات البحرية التي تشكل العمود الفقري للقرصنة أو نشاط الجهاد البحري فمن الأمور التي ساهمت في انتشار واشتهار

---

147) الاردب يساوي ويعادل طن بحري .انظر محمد بشير الكافي، قاموس المصطلحات البحرية ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط1، 1981،ص 9 .

148) ابن رشد، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل مستخرجة، تحقيق: جماعي، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1984م، ج9، ص85.

149) عمر عمالكي، البحر في ذهنية فقهاء المغرب، م س ، ص

150) البراءة وثيقة تسلمها إدارة المرسى للتاجر تدل على أنه استوفى معاملاته بهذه المرسى، وأدى ما عليه من حقوق، ويكون له الحق في التجارة في كلّ المراسي التابعة للجهة التي سلمت له وثيقة البراءة، يرجع لـــ:Dufourcq, op.cit p592 . وانظر محمد حجي، جولات تاريخية، م س.

151) عمر عمالكي، أطروحة، ميناء طنجة ما بين 1684-1856" الملحق نموذج للجوازات.

القرصنة.كحرب 30 سنة كمرحلة أولى (1619-1848) الأوربية وحرب ثمانين سنة كمرحلة أخيرة (1621-1648) بين الأقاليم المتحدة وإسبانيا حيث اتخذت الحرب طابعا سياسيا ودينيا، والتي جاءت على الشكل التالي:

- الحرب الإنجليزية الهولندية، 1652 -1654.
- حرب لويس الرابع عشر ضد هولندة، 1667 -1668.
- الحرب ضد عصبة الهوسبورغ، 1697 -1688.

وقد كان لهذه الحروب تأثير كبير على البحرية في المتوسط. والمحيط الأطلنطي وتسابق الدول الأوربية إلى العالم الجديد واعتمدت السواحل المغربية وموانئه إما سلما أو حربا، فلم يعد المغربي ينتشي بقصائد النصر والمدح للمجاهدين الذين حاربوا الكفار برا وبحرا وإنما حلت مكانها قصائد وخطب تستنهض الهمم وتحث على الحزم والمثابرة. ورفعت فتاوي بشأن ساكنة السواحل المحتلة أو القريبة منه، مما أوقع كل المغرب في حيرة وهرج. فأخذ الكل يدعوا إلى تظافر الجهود، وتقمص شخصية المخلص من ملة الصليب، وجسدتها النخبة العالمة في ردة فعل تعبر عما يختلج النفوس. وتشير سائر الرسائل الصادرة عن نبرة تدل على جثوم الخوف وانعكاس صورة الثغور[152] المحتلة على سائر الأمصار، حتى غدت صورة البلد المطل على البحر تستوجب وجود.

" وجار يرد عنها من لا تطيق دفاعه وإدارة سياج الأسوار لا سيما إن تكن المدينة حاضرة البحار"[153]

كما لا يكتفي المغاربة بتسوير المدن بل ابتعدوا عن المناطق البحرية. لتتضح روى وصور البحر والبحيرات في ذهنية العامة في الموروث الأسطوري والملحمي الممزوج بعادات ذات أبعاد مختلفة. تظهر في الثقافة الشعبية ومن الجذور والمعطيات التاريخية.

ثقافة البحر و البحيرات:

نستمد من الاساطير المغربية أن أصل بحيرة "إملشيل"[154]، منشأها على أصول اجتماعية صنعت أحداث درامية لعاشقين من قبيلتين من ايت حديدو وايت يفلمان المتخاصمتين. ومضمونها أن حبا

---

[152] تدل كلمة ثغر على ما تقدم من الأسنان وهو أيضا موضع المخافة من خروج البلدان والثغرة الثلمة. **مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي** طبعة دار الحديث القاهرة، 2004 ص 58.

[153] محمد بن علي الدكالي**. الإتحاف الوجيز تاريخ العد وتين** تحقيق مصطفى بوشعراء سلا 1996 ص 25.

نما بينهما على غير عادة هاتين القبيلتين على المصاهرة، لكن ارتباط الفتى والفتاة اضحى واقعا وأمام إجبار الأهل اختار الفتى والفتاة الانتحار وفاءا بعهديهما الذي وثقاه عند الشيخ سيدي احمد أمغنى[155]. بعدما ذرفا من الدموع ما شكل بحيرة في المنحدر الذي يتوسط جبال الاطلس الكبير بالجنوب الشرقي .وهكذا تحصل فكرة نشوء البحيرات بالمغرب إلى سريان قوة البحر. وتتبع فكرة البحر عند سائر المغاربة حتى أولائك الذين لم يشاهدوا البحر وأمواجه أو ركبوا أهواله قط كما حملني على ذلك ما حمل المؤرخ الفرنسي العظيم: فرنان بروديل على الاهتمام بالبحر الأبيض المتوسط بالرغم من انحداره من الشمال الفرنسي[156]. لم تنحصر تجربة البحيرات ومنشأها في العقلية المغربية فقط في نمط ومثال من الجنوب ففي الغرب نظر المغاربة إلى شاطئ سيدي بوسلهام بالقنيطرة على انه من كرامات الولي الصالح سيدي بوسلهام.

فالثقافة اتخذت من البحر مثالا لضعف الإنسان أمام عظمة الخالق، فبدأ البحر رمزا امتيازيا للغيب بخباياه، على أنه تدبير إلهي[157]، وهذا يفسر ما ينتاب المغاربة من الرهبة ويثير العديد من التساؤلات، فجعلت منه موطنا جديرا بالتأمل ومعرفة الآيات العظمى. كما يشير البحر إلى المشاكل الاجتماعية عند الإنسان[158]. وكونه موطن اليقين التام وهو متن صريح للتمثلات اليومية ونال مكانة عند معبري الرؤيا ومفسرها.

" ومن أراد أن يوقن أن الله تعالى هو الفاعل وحده ولا فاعل بعده....ويتحقق التوكل والتفويض فليركب البحر "[159].

وغلبت على البحر صفة العظمة والقداسة، واعتقدوا أنه سيد عظيم يغار من القوة المنافسة ويحب أن يخصص وحده بالهيبة، والحظوة، والطهارة[160]. حتى لا يحصل الغضب، كما خصص مشتغلي البحر أنصبة معلومة لكل من يساعد على تهدئة البحر والمياه البحرية واتقاء غضبها وجعله مطوعا

---

[154]) في الاصل هما بحيرتي إسلي وتسليت اللتان توجدان بقيادة إميلشيل التابعة لاقليم ميدلت نواحي الريش، تبعد عن تنغير 190كلم. وسط جبال الاطلس الكبير

[155]) هذه الحكاية توجد بالجنوب المغربي بمنطقة إملشيل حيث يحتفل بموسم الخطوبة كل سنة.

[156]) فرنان بردويل، **المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فليب الثاني**، مقدمة المجلد الأول الطبعة الأولى يقول بردويل: "أحببت البحر المتوسط بشغف ولا ريب في أن السبب في ذلك هو أنني من أهل الشمال. وأحدوا في ذلك حدو من سيقني في هذا لقد كرست سنوات طويلة من عمري في دراسته وكانت سنوات ممتعة. وكان من بين هذه السنوات معظم سنوات شبابي وأمل أن يشع بالمقابل بعض المتعة وقدر كبير من شمس المتوسط الساطعة على صفحات هذا الكتاب"

[157]) حسن أميلي: ***المغاربة والمجال البحري في القرنين السابع عشرة والثامن عشرة***. أطروحة دكتوراه مركونة بكلية الآداب جامعة الحسن الثاني المحمدية. 2004- 2002 ص 67.

[158]) يكثر الفقهاء من تذكير الحفظة في المحضرات القرآنية باغتنام مقدمة الشباب في التحصيل والانهال من العلم تبل دخول السفينة التي ترمز إلى الزواج بينما يرمز المولود إلى الغرق بلفظ "من تزوج دخل السفينة ومن ولد غرق".

[159]) قول ابن العربي أبو بكر: نقلا عن الونشريسي في المعيار ج 11 ، م س، ص 175.

[160]) حسن أملي، المغاربة والمجال البحري ، مرجع مذكور ص 89.

لإرادة البحارة، ويوفر لهم طاقة معنوية، محفزة للتردد على العمل الملاحي واستغلال خيراته، ببركة أولياء أو رجال الساحل[161] التي هي في الحقيقة قناعات لمعتقدات سابقة للإسلام في المنطقة.

" اعتبر البحر كائن يثور ويهدأ، أو يظهر سخطه عندما تقترف فوقه جريمة قتل مثلا، فيهيج ليرمي بجثة الضحية إلى الشاطئ"[162].

كما أنه لا يقبل سماع القرآن وفي اعتقاد الرياس الذين يمنعون الفقهاء "الطالب" من بين ركاب السفينة، من القراءة أو يعمدون إلى رميه في أديم البحر[163]. وينفرد الرياس بكل القرارات وتشجعه على مزاولة أعماله دون التقييد بقيود دينية. غير أن بحارة آخرين مغاربة سعوا إلى كتابة اسم الجلالة في صواري المراكب وتعليق بعض التمائم والأحجبة، وترديد بعض الأهازيج استجلابا للسلامة. وقراءة حزب اللطيف، لأبي الحسن الشاذلي، لحفظ النفس والمتاع[164].

مع تفاوت تعلق رجال البحر بالدين، خاصة بين مناطق الجنوب ذات العادات البربرية والمناطق الشمالية[165] بل صار للبحر أهله المتميزين بخصائص قلة الإيمان والساعين وراء السراب دون أن يحصل لهم غنى أبد. فهم يعدون ويفسقون[166] في الأيام المقدسة، ونجد في المأثورات حكاية أوردها: شكت السمكة إلى سلطان الحوت كثرة صيد البشر للأسماك حتى خافت انقراض نوعها فقال لها:

" أنت زنطة، وعشيرك يبقى ديما زنط. أنت عريانة ولأدعون الله أن يبقى عشيرك السماك دائما عريانا مثلك"[167]

ولا يستطيع المغربي في بعض الأحيان ذكر الحوت باسمه ويقول أكلت ولد البحر الذي هو قوة ومناط الرزق كما يقول المثل المغربي[168]، إما أن يغني أو يفقر وهو إنما يصف حالة من الهياج النفسي لدى البحارة الذين تنتابهم لحظات من الاضطرابات والخواء والسخط من واقع غير مدر للرغبات الكثيرة. أما معبري ومفسري الرؤى[169] فيمثلون البحر في صور كثيرة نقترب منها حتى نعطي صورة عن المجتمع المغربي الذي يرغب في تأويل أحلامه ورآه. حيث جاءت أراجيزه على

---

[161]) محمد المنصور وفاطمة الحراق، مصلح خولاني في بلاد المغرب نصيحة أحمد ابن القاضي التبكتي إلى أولي الأمر بتونس والمغرب. منشورات معهد الدراسات الإفريقية الرباط 2000. ص 35.

[162]) Louis Brunot ،« **Ethnographie Maritime de Rabat et Salé** »Bulletin de l'enseignement Publie au Maroc, N° 132 Avril 1934, P 50.

[163] Ibid, P 141.

[164]) حسن أملي ***المغاربة والمجال البحري*** مرجع مذكور ص 91.

[165]) نفسه ص 89

[166]) **القرآن الكريم سورة الأعراف** الآية 163.

[167]) من أقوال البحارة وخاصة السماكة عند تبرمهم من المردود.

[168]) في المثل: "من اشتغل بالبحر أربعين يوما يغنيه أو يرديه". حسن أملي **المغاربة والمجال البحري** م س، ص82.

[169]) اعتمدنا هنا على مخطوطة محمد الغساني المكناسي. "***منية العابر***" تحت رقم 2009 د، المكتبة الوطنية. بالرباط.

الشكل التالي، ورجل قال فقيل وآخر رأى كأن[170]..في تعبير بليغ يحاول رد كل رؤيا إلى نصابها الشرعي. فالمشي على الصراط دون مين رغم انتصابه على جهنم يأتي التفسير كالتالي: "أما ذلك الصراط فالمركب البحري لاختلاط * لأنه مشبهه فلتعلم فإنه نصب على جهنم"[171].

ويستطرد العابر ليدعوا على المركب بالبعد عن المسلمين، إذ البحر جهنم، وهو سيعود نارا، وسبب كل منكر. في حين يرمز المركب الراسي "بالنشا" مخافة العطب، ليثني على السفر بحرا بتفسير لفظ يشاء لوروده في القرآن[172]. كما يعبر البحر في الحلم على السلطان أما موجه وسمكه، فهم الوزراء والأعوان فهو بحيض بالسفن ويعرضها للمحن، ويضطرب معها الركاب، فلا منجي إلا القادر[173]. أما رؤيا دخوله فإشارة إلى حلول العلم بالشخص ودليل النباهة والإلهام[174]، غير أن الفاعلين السياسين الذين تدور علاقاتهم مع الأطراف الأجنبية وفق مصالح يعدونها من محامدهم ومحاسن سياستهم. فقد نظر سلاطين الدولة العلوية إلى البحر بمناظر مختلفة. وقد سجل الإخباريون مجموعة من الرسائل التي تعبر عن عقلية سياسية، محضة حيث خاطب المولى إسماعيل (1672-1727) الملك الإنجليزي، جان الثاني سنة 1698 تهربا من مساعدته.

" و والله لولا أنا أناس عرب لا معرفة لنا بالبحر،أو كان عندنا من يحسن معرفته أو نستوثق به في الجيش ونطلقه في يده حتى نكاتب الإنجليز، ونبعث لك من الجيش ما تدخل به عليهم وتتولى به ملكك"[175].

ويجاريه رياسه في ذلك حيث نجد ابن عائشة يكتب إلى السفير الفرنسي[176] مثل هذا القول: بأمر من السلطان حيث يعزوه إلى الحديث النبوي.

غير أن أهم ما نسجله في هذا الصدد وهو اختلاف التجربة الملاحية في العقلية بين ما هو فقهي محض وبين تجربة السياسي والمهني البحار. حيث نجد أحد الفقهاء المغاربة، أو المارين به يعاتبون البحارة على اعتقادهم هذا، الذي يعطي للبحر صفة القداسة، ويشبهه بالشيطان الملعون، عوض

---

(170) نفسه ص ص 27، 28، 29.
(171) نفسه ص 27.
172) نفسه ص 29 . **سورة ياسين الآية** "وإن نشأ نغرقهم فلا ضريح لهم ولا هم ينقذون" 42 .
(173) نفسه ص 135.
174) نفسه ص 136
175) H de Castries. SIHM2[éme] série France. Tome IV. Paris .1929. P 569.
يقول المولى إسماعيل "بالله لولا أن العرب كانوا رجالا لإقامة الحرب على البحر، وامتطاء المركب والقواديس ما كنا لندع قرصانا إنجليزيا واحدا يجتاز مضيق جبل طارق لكن العرب لا يعرفون إلا صهوات جيادهم". المجلد الخامس ص 422.
176) رسالة إلى الوزير Purchartrain "والبحر للروم وقد سلمنا لهم في البحر". انظر SIHM السلسلة الثانية فرنسا مجلد 5 ص 407.

الملك والسلطان. وقول البحارة المراكب بيت الله[177]. ومنع البحارة قراءة القرآن والنداء والصلاة بدعوى عرقلة تلك الأفعال لسير المراكب، ويؤكد على أن المراكب.

" ألواح ومسامير وأحبال وأما البحر فهو ماء تحته تراب والريح مخلوق ضعيف كالإنسان"[178]

وأما الأفعال التي يمارسها البحارة لاسترضاء البحر فهي إنما لاسترضاء الشيطان اللعين[179]. فالفقيه الذي تحركت عواطفه لانتهاك البحارة للدين وهتكهم ستر الشرع، مما دفعه إلى استنكار الباطل بل وتحرير شكوى إلى سلطان المغرب سماها شكاية الدين المحمدي من البحارة...تبين مدى ارتباط العقلية بتوضيح ظواهر الامور وعدم الانشغال بما هو وراء هذه الظاهرة من نقص التقنية وعوز في الخبرة، وإرادته التغيير. حينما قال أن البحر مخلوق ضعيف مسخر للإنسان وهو أيضا محل النعم.

إنها مفارقة عجيبة بين ثلاثة نماذج للعقلية المغربية: البحارة والسياسة والفقهاء الذين تنوعت إيراداتهم وملاحظاتهم بهذا الشأن. فهو موطن الأهوال وبعيد الفهم، مليء بالأخطار فأفضل الملجأ هو الله[180]. وشبه الإنسان في قعر السفين بالجثة في مدفنها مع ترقب العدو الذي لا يؤتمن أبدا شأنه[181]. وقد استمرت هذه الثقافة في تنميط الشأن البحري لأوقات مشفوعة بسوابق من الأحداث التاريخية التي علقت بخواطر العباد[182]، وقيل أن ثغر تطوان لا يسكنه الأغربة ولا برشة ولا غلياطة وإنما هناك صيادي الحوت[183] .

ثقافة الكرامات:

إن خوض المحيط لا يكاد يقتصر على البحارة بل إن كرامات الأوليات ارتبطت بالبحر ويدل على ذلك تعدد التسميات التي أطلقها المغاربة على هذه المناطق في إشارة إلى سيادة هاجس الولاية الروحية والدينية التي شكلت عناصرها حوافز نفسية شجعت على تجاوز المخاوف والإقدام على الأنشطة البحرية، إذ تسمو بالروح وتجعله يعانق البحر ويحس بنوع من القوة والفورة الزائدة[184]. لما أبت ثقافة البحر أن تترك الفقيه في منأى عن الانشطة والقضايا البحرية. واشير على سبيل

---

[177]) أحمد بن القاضي التنبكتي شكاية الدين المحمدي إلى رعاية الموكلين من عادات البحارة والحمالين، مخطوطة بالخزانة الحسينية رقم 6831 ص 6.

178) نفسه ص 6.

[179]) نفسه ص 9

[180])أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،م1، بيروت دار صادر 1988 ص 33.

181) نفسه ص 33.

182) السلطان المولى عبد الحفيظ العلوي، داء العطب قديم ، مخطوط، رقم 12108 دار الوثائق الملكية حسان الرباط ص 12.

[183]) نفسه ص 13

[184]) انظر كرامات الاولياء حول امور البحر انطلاقا من كتاب، التشوف إلى أولياء التصوف، للتادلي.

المثال لا الحصر إلى ما واجه الفقهاء من اسئلة حول وضعية زوجة الاسير المسلم في ديار النصارى. أي البحث في وضعيتها الاجتماعية المتراوحة بين الانفصال الاضطراري وضرورة الوفاء بالعقد، هل يمكن للزوجة التي يوجد زوجها أسيرا خلال سنوات طويلة عند الروم أن تطلب الطلاق مثلا[185]؟ ما حكم الزوجة التي لا يمكن لها بوجه من الوجوه مراسلة زوجها الأسير عند النصارى في مكان معروف[186] هل يجوز الزواج الذي يعقده مالك نصراني بين مملوكيه المسلمين في دار الحرب، وما حكم هذين الزوجين عند عودتهما إلى دار الإسلام مرفقين بابن ازداد خلال زواجهما في بلاد الروم؟ ما حكم هذا الابن في الشريعة الإسلامية[187]؟ إن العلماء المسلمين أوجدوا لكل هذه المسائل والقضايا حلولا عملية وإنسانية، وضعت حولها مصنفات فقهية. وعليه يختار الفقيه الجانب الأهم في أجوبته بضرورة فداء وافتكاك هؤلاء الاسرى في المقام الأول وهذا الأمر بمثابة مسؤولية ملقاة على عاتق الجماعة، كما كان يستعان أيضا من بيت مال[188]. أو عملية تبادل الأسرى[189]. أو ابداء الجانب التضامني بجمع التبرعات في المساجد[190]

كما ظهرت ثقافة الزعامة الفردية التي تقدم على رفع الحيف واستنقاذ الاسرى ولو بطرق غير مفهومة عقلا ومنطقيا إما بمبادرات فردية أدت إلى إحداث وظيفة خاصة عرفت "بالفكاك". إن الفكاك قد يكون في الاصل وغالبا تاجرا وصاحب علاقات ذات ابعاد دولية ندب نفسه للسهر على افتداء الأسرى خلال رحلاته التجارية. هكذا كان يعقد العقود مع لأجل افتداء أسرى معينين من البلاد المسيحية مقابل مبالغ محدد. واختص الاندلسيون بكتابة عقود الفداء لتوسع مداركهم اللغوية واختلاطهم بالمعاملات الاوربية وكان المؤلفون الأندلسيون يلحقون كتبهم في باب الوثائق نماذجا لتلك العقود. في حين ظهرت هناك المؤسسة الموازية المعروفة وهم غالبا من اليهود الذين يتحملون مسؤولية مرافقة الأسارى، وهم يقومون بعملهم المرخص وبتفويض سلطاني فاستأثروا بمكانة

---

[185]) الشعبي المالقي، الأحكام. طبعة الحلوي، بيروت 1992. صفحة 402 ، رقم 879 .

[186]) نفسه، صفحة 467.

[187]) نفسه،452.

[188]) يذكر ابن حزم، أن فدية الأسرى فرض على الأمة ، عندما لا يستطيع الأسير أن يفتدي نفسه بماله. ولمزيد توضيح حول النقاش الفقهي حول هذه القضية انظر :

E. Gräf, Religiöse und rechtliche Vorstellungenüber Krieger fan gene in Islam und Christentum, in"Die Welt des Islams", Neue Serie,Vol.8,1963,98-130 . (1982)

[189]) الونشريسي ،المعيار والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب. طبعة محمد حجي وآخرين. الرباط 1981-1983. المجلد الثاني, ص: 161 وما بعدها .

190) نفسه، المجلد الثاني، ص: 211. ص 213. ونقتبس عن N. Daniel: Islam and the West. The making of an image. Oxford 1993 (revised edition), 249. شهادة Riccoldo de Monte di Croce بقوله: "إن المسلمين جمعوا ثروات كبيرة ووضعوها في خزينة, وبعد وقت معين فتحوها وقدموها لمسلم ثقة يذهب إلى مختلف الأقاليم يفتدي بها الأسارى والعبيد المسلمين الذين يوجدون في السجن عند المسيحيين أو دول أخرى". مقتبس عن :

مركزية في هذا الشأن[191] كما بجد ثقافة الاستجداء إذ كان الأسير يحاولها المراسلة مع عائلته في موطنه حيث يطلعهم على مكان وجوده وكذا المبلغ المالي الذي هو في حاجة إليه لافتداء نفسه[192]. وتلجأ بعض العائلات إلى رهن الابن حتى يجمع الأب المسرح ذلك القدر المالي المطلوب. غير أن المجتمع المغربي كره هذه العملية وعوضها بالغرم الجماعي وكان الفقهاء "يحكمون على جميع سكان حصن تخلصوا من الأسر عن طريق تقديم الأطفال كرهائن، أن يساهموا كل على حسب إمكانيته لجمع المقدار الذي يتطلبه افتداء كل الأطفال الرهائـن"[193] أو يتوسل أهل المفدى بحرم أولياء لهم مقدرة على الحل والعتق و شاع عنهم من خوارق. حتى أنه انتشر صيت بعض الاولياء المشهود لهم بهذه الخوارق مثال بقي بن مخلد[194] أحد كبار علماء قرطبة إذ يقال " إن امرأة يائسة لم تكن تملك ما تفتدي به ابنها الأسير عند النصارى لجأت إليه. بعدئذ حكى الأسير قائلا إن السلاسل الحديدية في كعبيه سرعان ما كسرت بحيث لم يستطع أحد من النصارى ولو من القساوسة إعادة القيد إلى مكانه. وأدركوا أنه يحظى بعناية ربانية تركوه حرا طليقا بل رافقوه إلى دار الإسلام"[195]

---

[191]) C. Verlinden, L'esclavage dans l'Europe médiévale. I (Péninsule Ibérique, France). Bruges1955. p242.

192) انظر ما حدث لابن برطلة في القرن 13، المعروف بصاحب قصيدة " ذكرى المتفجعين وبشرى المسترجعين" يبدو أن القصيدة ضاعت، لكن الشاعر حرر من أسره وتوفي في تونس سنة 1263: ابن الزبير (1993) ص. 144 (رقم 237). أنظر أيضا: الغبريني (ت. 1314): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية. تحقيق عادل نويهض. بيروت 1979 ص. 322-324 (رقم 101)

[193]) الونشريسي ، المعيار ، م س،ج2 ص. 117

[194]) توفي سنة 889هـ ،انظر الحميدي (ت. 1095) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر. تحقيق م. تاويت، القاهرة 1952. ص. 178-179 (رقم 334).

[195]) ابن الطواح (ت. 1318) كتاب سبك المقال لفك العقال. مخطوط رقم 105 مخ، خ ح، الرباط المغرب. أمثال الزاهد الأندلسي الشرفي من القرن الثاني عشر عرف كيف يرخي الأغلال الحديدية في رقبته وتمكن بعد ذلك برفقة صديق لـه من قطع مسافة، استغرق قطعها يوما كاملا خلال أخذهما أسيرين في البلاد المسيحية، في ساعات قليلة غير أن هذه المرة في اتجاه الحرية أنظر

F. Meier, Tahir as-Sadafi's vergessene Schrift über westliche Heilige des 6-12 Jahrhunderts. "Der) (Islam" 61 **(1984), 14-90, p. 32.**

ومثل الشاطبي، الذي صد مائة من الفرسان المسيحيين الذين راموا القبض عليه. وفي واقعة أخرى عرف كيف يغير اتجاه الرياح بكيفية جعلت سفينة مسيحية محملة بالأسرى المسلمين تتكسر في اليابسة بحيث تحرر الأسرى المسلمون. انظر (Meier (1984), pp. 61-63.). اضافة إلى الشستري الأندلسي الذي ينادي على الأسرى بحيث أن المنادى عليه، ينتقل للعيش في بلاده في اليوم القادم انظر(لسان الدين بن الخطيب (ت. 1374) الإحاطة في تاريخ أخبار غرناطة. تحقيق م.ع. عنان. القاهرة 1977. أربع مجلدات. المجلد الرابع ص. 205-219).

واشتهر ريحان الأسود في مدينة سبتة على مضيق جبل طارق، بكراماته " يقال إن زوجة رايس أسير طلبت منه التدخل لافتداء زوجها. ولم يمر وقت طويل على دعاءه حتى عاد الى زوجته سالما. أصبح قبره مزارا انظر(H. Ferhat, le Maghreb aux XIIème et XIII ème siècles: les sciences de la foi. Casablanca 1993,p19.)

والوالي رضوان الجنوي ضجيع فاس تنسب إليه كرامة وبركة افتكاك الاسرى والعثور على الفارين من العبيد. عمل رضوان الجنوي جهده قصد تحرير أسرى الحرب بعد معركة وادي المخازن. فاختار السلطان المنصور تحرير الأسارى المسيحيين بالمال بدل استبدالهم بالأسرى المسلمين عند البرتغال انظر("تحفة الإخوان ومواهب الامتنان في مناقب سيدي رضوان". بوشنتوف، صورة عالم من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي مجلد أمل 4 (1994) 29-52, خاصة الصفحات 33, 34 و 38.)

إن الكرامات المنسوبة لصلحاء تعبر عن ثقافة الافتكاك. وفق الروايات التي تشاع عن دور كل هؤلاء في فداء الأسرى الباعثة عن مناخ أرسته ظاهرة القرصنة والاسر في حياة الناس اليومية خلال العصور الوسطى .

ثقافة المناظرة الدينية :

كثيرة هي الكتابات التاريخية التي نشأة بين اسرى أو مفتدين مغاربة ونظرائهم الاوربيين ونذكر منها:"مقامع هامات الصلبان في الرّدّ على عبدة الأوثان ومراتع روضات الإيمان" [196] "وترك الخزرجي كتابه، في نسخ بأيدي جماعة من المسلمين المبتلين بالأسر هناك لما يسر الله في تخلصه فانفصل عنها اثنتين وأربعين وخمسمائة"[197] وكتاب محمد الأنصاري الأندلسي الذي كتبه خلال القرن الخامس عشر تحت عنوان: " رسالة السائل والمجيب وروضة نزهة الأديب" حيث خصص الفصل الأخير منه لمجادلاته التي خاضها في قشتالة لما كان هناك أسيرا[198]. ونشير إلى بعض المتأخرين أمثال ابن عثمان المكناسي" الاكسير في افتكاك الاسير". واحمد بن القاسم الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين[199]. وهناك عدة رحلات سفارية واكبت الانشطة البحرية بالمغرب في العصر الحديث والمعاصر لا داعي لذكرها فهي شغلت حيزا كبيرا في عمليات التحقيق والدراسة.

خاتمة

حصل هذا النشاط انطلاقا مما لعبه البحر في سيرورة النظم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في المغرب، الشيء الذي جعله أحد مفاتيح المعرفة المستمرة، ونشير كذلك إلى أن البحرية المغربية لها تقاليد تاريخية[200]. دون اقتصارها على القرصنة والجهاد كما شاع ذلك، أو ارتباط النشاط البحري بتواجد أجنبي. وعلى الرغم من تناولنا الموضوع من جانب الثقافة العالمة فالحدث التاريخي له وقعه في الذهنية، والذاكرة الجماعية للإنسان في جل مراحل تاريخه، فكلما أبت ثقافة المغرب البحرية واستعصت على الضمور تحول جزء منها إلى تراث شعبي أو فلكلور.

---

[196]) لأحمد بن عبد الصمد الخزرجي (ت 1186) تحقيق عبد المجيد الشرفي. تونس 1975 ص. 39 .

[197]) انظر عبد الواحد المراكشي، المعجب في اخبار المغرب، ص 240.

[198]) محمد الأنصارى الأندلسي، رسالة السائل والمجيب وروضة نزهة الأديب. مخطوط المكتبة العامة بالرباط رقم د1138 ص. 321-227.

[199]) حققه قاسم السامرائي من جامعة هولندية.

[200] Bernard lugan : ***histoire du Maroc des origines à nos jours***, librairie académique parrain , giterions 2000 p 161.

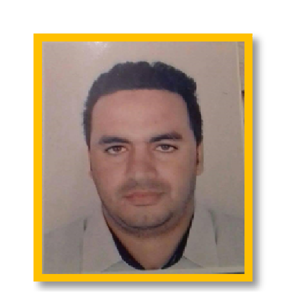
فلا نجد دليلا واضحا عن تخلف العقلية المغربية عامة في ميدان البحر وإنما نجد مفارقات كثيرة بين فئات المجتمع، ونظرتها إلى البحر ومجالاته مع تأثرها بالمعطيات التاريخية، وأصداء الأسطورة والخرافة النافقة سوقها عند ساكنة السواحل، كان بإمكاننا أن نجازف ونقبل أفكار جاهزة وتبنيها في هذا الطرح حول ذهنية فقهاء المغرب وعلاقتها بفعل البحر في تاريخ البلد كله ومدى إشعاعها على مجالات التفكير في تلك اللحظات. وبالتالي تشكيل جسر فكري، ويكون من السهل القول بأن المغاربة في علاقاتهم بالبحر ظلوا أسارى جملة من الأساطير والتصورات، وكونه يشكل حاجزا طبيعيا بين دار الإسلام ودار الحرب. وبالتالي وقوف العقلية كحاجز أمام تنمية قطاعات متعددة لها ارتباط بالبحر والتي ستدر على الاقتصاد المغربي خيرا كثيرا، ورغم ذلك لا يمكن تنمية القطاع البحري دونما تنمية الإنسان، ودوره و تخليص عمل البحر من إرادة السلطان[201]. لأن هذه التكهنات تهمش اهتمام المغاربة بالبحر وتبعد عنه الأدوار التي لعبها في تكوين هوية المغرب.

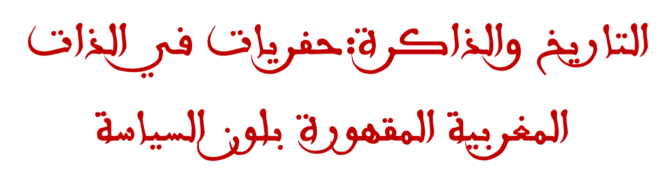
اعتملت أحداث شتى في تكوين تاريخ ثقافي للبحرية المغربية اختلطت فيها وقائع سياسية واقتصادية وأيضا دوافع نفسية، أكثر منها دينية عقائدية، مما صاغ عقلية ذات أبعاد وتجليات مختلفة بحمولة: إيجابية أو سلبية تجاه البحر. واخير نقر بعدم إدراج المقولات الشعبية والثقافة العامية في هذا المقال لأن المقام لا يتسع لها.

---

[201]) Abdelaziz chahbar, des Marocains et la mer, une excavation dans une Mémoire, Revue, Maroc Europe : les pêches maritimes, éditions, la porte, N°9 1996 PP 85-86







عبد الحكيم الزاوي
باحث في تاريخ المغرب
المعاصر

يطرح جدل التاريخ والذاكرة في تاريخ المغرب الراهن بشكل أكثر صخبا في قراءة منجزنا التاريخي،[202] كإشكالية مركبة تخترق مخابر ابستمولوجيي المعرفة التاريخية، وتفرض تدخلا عاجلا لمختصي الزمن قصد الحد من انزلاقات الذاكرة، وتلاعبات مالكي وسائل الإكراه والانتاج بها، يحضر العنف والعنف المضاد في تفسير وقائع أحلك اللحظات عتمة في استوغرافيتنا الراهنة، تخبو اللغة والرمز وبعدها المكتوب وراء أقنعة النسيان، ويختفي خلسة معها الجلاد، فيصدح صوت زنازن السجون والمعتقلات السرية، مذكرا بجروج أليمة تعتور ذاتا مكلومة بطعم السياسة.

[202]- أصل هذا النص مداخلة ضمن ندوة بعنوان"التاريخ الراهن" احتضنتها مكتبة آفاق بمراكش يوم 17 مارس 2016، نظمتها جمعية مراكش للذاكرة والتاريخ بشراكة مع المندوبية الجهوية لوزارة الثقافة بمراكش.

ففي تفاصيل أدب السجون، ومتابعات الصحفيين، ومذكرات المعتقلين، وكتابات المؤرخين، وشهادات الفاعلين ينكشف المعنى، وتفصح الذاكرة التاريخية المنسية خلف أقبية الظلام عن ماضي حزين، ماضي الانتهاكات الجسيمة لحقوق الانسان، والاعتقال التعسفي الذي ميز للحظات تاريخ التجاذب السياسي بين المؤسسة الملكية والقوى اليسارية حول شرعية ما بعد الاستقلال، لتنطق ذاكرة الألم الفردي والجماعي، مفصحة عن موضوع على درجة عالية من التشبيك والتعقيد، يغري آل الزمن، ورفقائهم من تخصصات مجاورة، بالبحث والتنقيب، للكشف عن الحقيقة الضائعة، للمصارحة قبل المصالحة.

ذلك أن الإكراه في هكذا "موضوع حارق" يقع في خط التماس مع " إلتباس منهجي" يعتمل داخل مختبر المؤرخين، حول شرعية البحث في التاريخ الراهن، وترك مساحات ظل في الوراء دون إضاءات تاريخية ، حول مدلول الوثيقة الجديدة التي اقتحمت حقل التاريخ، حول تفاعلات الأحياء مع ما يكتب وينشر في أعمدة الصحف وسوق النشر، حول مسؤولية الذاكرة في كتابة التاريخ، حول الطلب والشغف المعرفي الذي يبديه قراء لغة الضاد لاستكشاف حقيقة ما وقع من وقائع، باختصار حول جدل التاريخ والذاكرة[203].

تتغيا هذه الورقة تتبع جدل التاريخ والذاكرة القريبة من واقع الأحداث بالمغرب، بانهجاسات راهنة، تمتح من عدة تفاعلات تسم الرأي العام السياسي بالمغرب، لعل من ضمنها، تداعيات التصريحات الأخيرة للأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون حول ملف قضية الصحراء، وبما يمكن للمؤرخ أن يقدمه من تحليلات تاريخية، متابعات، قراءات، حول ملابسات القضية وتفاعلاتها الراهنة في وضع دولي موسوم بالتغير، تبعا لتغير خارطة المصالح والرهانات الجيواستراتيجية، فيقودنا ذلك إلى تسجيل مفارقة مفصلية في تناول القضية: بين الحاجة الدولة إلى استحضار التاريخ في لحظات الأزمة والانكسار، وبين هامشية المؤرخ في مواكبة النقاش العمومي.

الاستحضار الثاني الذي يغدي هذه الورقة، يرتبط بتعزز سوق النشر والقراءة بالمغرب بصدور انتاجات من تخصصات مختلفة حول التاريخ القريب من الذاكرة، كان آخرها، رواية " زمن الخوف"[204] للصحفي

---

[203]- للإحاطة بهذه القضية يمكن مراجعة : محمد حبيدة، بؤس التاريخ، مراجعات ومقاربات، الطبعة الأولى، دار الأمان، الرباط ، 2015 ص 153-168، وعبد الأحد السبتي، التاريخ والذاكرة، أوراش في تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2012 ،ص 209-217، وحسام هاب، تاريخ الزمن الراهن، المفهوم والاشكاليات، ضمن مجلة وجهات نظر، عدد مزودج، 56-57، 2013، ص3-7، إضافة إلى بعض الندوات مثل "ندوة التاريخ والذاكرة (2001) ،منشورة بالعدد الأول من مجلة البحث التاريخي، 2003، و ندوة "تاريخ المغرب: تحديد مجالات ومقاربات جديدة"، أعمال الورشة الأولى لأيام تاريخ المغرب 2004، منشورات جامعة الاخوين، افران، 2006.وندوة من "الحماية الى الاستقلال: اشكالية الزمن الراهن"، 2005، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 2006.

[204]- رواية " زمن الخوف" للصحفي ادريس كنبوري المتخصص في الحركات الإسلامية والإرهاب لقيت متابعة مهمة من طرف الصحافة المغربية، وكذلك من طرف بعض المؤرخين، وهو ما تعكسه

ادريس الكنبوري، حول أحداث مجزرة " سوق الأربعاء" سنة 1957م، بين التيارات السياسية بالمغرب غداة الاستقلال، والتي لقيت تجاوبا كبيرا من طرف المختصين، وعموم القراء، للنبش في اللحظة التاريخية الموشومة بالعنف السياسي والعنف المضاد، مما يفسر وجود طلب معرفي حول هذا الأدب التاريخي.[205]

لتنطرح عديد الاستفهامات حول هذا النوع من الكتابة التاريخية كمداخل أولية في أفق تعميق النظر في تشعباتها الكبرى:

لماذا الاهتمام بالتاريخ الراهن؟ وما فائدته المنهجية والاستوغرافية؟ وهل تحقق تراكم استوغرافي كاف للقيام بحوصلة تنظيرية، والخروج بمراجعات ومقاربات وأوراش بحثية تخرج بالبحث التاريخي من حالة الانحباس والبؤس الذي يصفه البعض؟ وهل هناك اقتناع تام من طرف مختصي الزمن بهذا النوع من التاريخ؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون هروب إلى الأمام من اشكاليات تاريخ الحماية ومن عقدة التركيب أساسا؟ وهل التاريخ الراهن يعبر عن مسار طبيعي ضمن شبكة البحث التاريخي بالمغرب، أم أنه انزلاق محفوف بمخاطر وهواجس؟ وهل يستقيم الحديث عن دراسات مرجعية عن هذا التاريخ، أم أن البحث لازال جنينيا في هكذا سياق؟ وأخيرا، هل يمكن للمؤرخ أن يقيم حوارا هادئا مع ذاكرة سياسية موشومة بالصخب؟

يعدو الخوض في إشكاليات كتابة التاريخ الراهن بالجامعة المغربية انشغالا مجتمعيا بامتياز، لكنه قد لا يخلو من انزلاقات منهجية واستوغرافية بالنسبة للمؤرخين، هواجس تمتح من مستويات عدة، من حيث المنهج، تمتل الزمن، البنية، الحدث، المفهوم، التحقيب، البيبليوغرافيا[206]...قياسا بتقاطعات وتمفصلات التاريخ الراهن- منذ الإستقلال الى فترة العهد الجديد- التي أفرزت معطيات جديدة، اشكالات مركبة، تداخلات علائقية معقدة، وقضايا تاريخية حارقة، أمور فرضت على المؤرخين، ولأول مرة، الانخراط

قراءة المؤرخين محمد معروف الدفالي والطيب بياض التي احتضنها مركز محمد بلحسن الوزاني في أبريل 2016.

[205]- يعرف بأنه الكتابات التي حاولت ملامسة تجربة الاعتقال السياسي إبداعيا، أي أنها اتخذت من الكتابة وسيلة لتصفية الحساب مع تجربة انسانية ووجودية ونفسية مريرة، وقد تكون تجربة واقعية أو متخيلة، يمكن أن نحيل القارئ هنا إلى عدة روايات تقع ضمن مصنف ما يسمى "أدب السجون" la littérature carcérales مثل: مليكة أوفقير، "السجينة"، ترجمة مشيل فيتوسي، تحقيق غادة موسى الحسين، دار الجديد، الطبعة الاولى، 2000، وفاطمة اوفقير، "حدائق الملك، الجنرال أوفقير والحسن الثاني ونحن"، شهادة ومذكرات، ترجمة مشيل خوري، الطبعة الاولى، 2000، وجواد مديدش، "الغرفة السوداء، درب مولاي الشريف"، منشورات مرسم، 2009، وأحمد المرزوقي، "تازمامارت، الزنزانة 10"، المركز الثقافي العربي، الطبعة الاولى، الدار البيضاء، 2012، ومحمد الرايس، "من الصخيرات الى تزمامارت: تذكرة ذهاب وإياب الى الجحيم"، ترجمة عبد الحميد جماهيري، منشورات الاتحاد الاشتراكي، الطبعة الاولى 2000، إضافة إلى بعض الأفلام السينمائية كفيلم " درب مولاي الشريف la chambre noire" لحسن بنجلون.

[206]- محمد حبيدة، بؤس التاريخ، م س، ص 7.

في جدل التاريخ والذاكرة ، ومتابعة النقاش العمومي والدولي حول تفاعلات التاريخ القريب من الذاكرة، مواكبة للتحولات البنيوية التي شهدتها مرحلة الانفراج السياسي والحقوقي لمغرب التسعينات، وفترة العهد الجديد لحكم الملك محمد السادس[207].

استشعر البحث التاريخي بالمغرب ضرورة اشراك المؤرخين في التفاعل مع النقاش العمومي حول ماضي الانتهاكات الجسيمة لحقوق الانسان سنوات الحمر والرصاص، وما صاحبها من اعتقالات قسرية، ومحاكمات صورية لضحايا العنف الرسمي، في سياق تجاذبات الصراع حول السلطة، بين المؤسسة الملكية والقوى اليسارية، لرصد جوانب العتمة في فترة تاريخية أدرجت ضمن خانة اللامفكر فيها، لحساسيتها التاريخية، وتفاعلاتها الممتدة، وارتباطها بفاعلين سياسيين لا زالوا على قيد الحياة، مما يطرح مأزق التأريخ للذات انطلاقا من شواهد الذاكرة.

تشهد على هذا المنحى، سلسلة الندوات واللقاءات التي نظمتها كليات الآداب والعلوم الانسانية بالمغرب منذ مطلع القرن الحالي، من قبيل ندوة "التاريخ الحاضر ومهام المؤرخ" في نونبر 2005م بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، وندوة من " الحماية الى الاستقلال: اشكالية الزمن الراهن" والأيام الوطنية للجمعية المغربية للبحث التاريخي ايام 1-2-3 دجنبر 2011 في موضوع "التاريخ المعاصر: التاريخ والهوية والحداثة".

تعكس هذه الندوات واللقاءات التاريخية، بالمغرب كما بالخارج، إضافة إلى جلسات الاستماع العمومية التي باشرتها هيئة الانصاف والمصالحة عن ترسخ انشغال معرفي وسياسي وحقوقي، للنبش في تفاصيل مرحلة دقيقة من تاريخ المغرب، والرغبة في الانصات والاقتراب من ذاكرة المعذبين من سنوات الجمر والرصاص، وتكوين ذاكرة جماعية وطنية عن تاريخ عنف الدولة الرسمي، لطي صفحة الماضي، وبناء العدالة الانتقالية عن طريق الانصاف والمصالحة، كمدخل نحو ترسيخ قيم الديموقراطية والتنمية والحداثة والقيم الكونية لمرجعيات حقوق الانسان.

لقد كان لصدور كتاب جيل بيرو " صديقنا الملك"[208] للصحفي الفرنسي جيل بيرو، ورصد تقارير حقوقية دولية لوضعية حقوق الانسان بالمغرب، وضغط المنظمات الحقوقية المغربية في الداخل، انعكاس مباشر في التمهيد لسياسة الانفراج السياسي والحقوقي بالمغرب لحظة التسعينات، وبداية الحديث عن مرحلة الانتقال الديموقراطي، التي ستبدأ بعودة المنفيين السياسيين والحقوقيين الى المغرب، وتأسيس المجلس الاستشاري لحقوق الانسان، ومشاركة القوى السياسية المعارضة في الانتخابات، وذلك في سياق

207- عبد العزيز الطاهري، المذكرات وكتابة تاريخ الزمن القريب والراهن، ضمن مجلة وجهة نظر، عدد 62، 2014، ص 8.

208 - جيل بيرو، صديقنا الملك، ترجمة مشيل خوري، الطبعة الاولى، 2002

ماكروسياسي دولي، مطبوع بتحولات جيوسياسية عميقة، بعد انهيار جدار برلين، وانتقال بنية العلاقات الدولية من نظام القطبية الثنائية نحو القطب الواحد عقب تفكك واختفاء شبح الاتحاد السوفياتي.

رافق هذا الاقتحام الجديد لكتابة التاريخ الراهن، من طرف المؤرخين، والذي كان حكرا في ما مضى، على مختصي العلوم السياسية[209]، ورفقائهم من علماء الاجتماع والانتربولوجيين[210]، أقلام الصحافة وجهات النظر بخصوص هذا النوع من الكتابة التاريخية، بين مؤيد وداعم، وآخر رافض ومنتقد. اختلاف منهجي تمحور أساسا حول طبيعة الوسائل والأدوات المنهجية التي تجعل المؤرخين على مقربة من قراءة وتأويل معطيات الذاكرة السياسية القريبة، وملابستها المعقدة، والتي تفرض إعادة النظر في الثوابت المنهجية التي تشكل هوية التاريخ، وفي أساليب اشتغال الدراسات التاريخية، وفق الأسس الابستمولوجية التي قطعها التاريخ في طريق تأكيد العلمية والمشروعية، مرد هذا الصخب، مفهوم الوثيقة الجديدة، وانتفاء شرط اختمار الوثائق، ومقياس المسافة بين الحدث الراهن والمؤرخ الباحث.

وعلى أية حال، فقد ساهم انفتاح البحث التاريخي على قضايا التاريخ الراهن، وتجسير قنوات التواصل، والحوار المباشر مع تخصصات انسانية مجاورة، وفق قناعة التناهج التي ناضلت من أجلها المدارس التاريخية، في سياق تقعيد الأسس الابستمولوجية للمعرفة التاريخية، وفي أفق بناء السوق الانسانية المشتركة بتعبير مؤرخ المتوسط فرناند بروديل في رسم توجه جديد يجعل الكتابة التاريخية، والبحث التاريخي في واجهة النقاش، وفي صدارة العلوم الاجتماعية والسياسية، المهتمة بالتاريخ الراهن، حول فهم ملابسات فترة تاريخية مركبة، بمعالجات رصينة، وتأويلات تاريخية عميقة، تنهل من العمق الزمني، الذي يشكل بلازما البحث التاريخي، وتقرب تحليلات وتأويلات المؤرخين، بعد مرحلة غياب طويلة عن المشهد العمومي من جمهور القراء، ومؤسسات النشر، وشاشات الإعلام، بل وتجعل البحث التاريخي في قلب معركة الانتصار للعلمية التاريخية بتعبير مشيل دوسرتو[211] على حساب التوظيف السياسي للذاكرة الوطنية.

---

[209] -2- Mehdi Bennouna, Héros sans gloire, échec d'une révolution, 1963 1973, Casablanca, 2002.

[210] -David Montgomery Hart, The Aith Waryagher of the Morrocan, Rif an Ethnography and History, Tucson, 1976. Et Balta Paul, Le grand Maghreb dès l'indépendance à l'an 2000, paris ,1990 , Paris, 1992, Palazoli Claude, Le Maroc politique de l'indépendance a 1973, paris, 1974 ,I. Dalle, Le règne de Hassan 2 ,1961-1999 : Une espérance brisée, Paris ,Casablanca, 2000.

[211] Michelle de Certaeau, l'opération historique, dans Faire de l'histoire, nouveau objets, sous la direction de Jacques le Goff et Pierre Nora, Edition Gallimard,



إنه اجتراح تاريخي لذاكرة الألم والمعاناة، معاناة جيل بأكمله في مواجهة سراديب الجلادين، وأنظمة القمع البوليسي، وأقسى أنواع التنكيل والاضطهاد التي تنهل من العمق التاريخي للمخزن، كبنية سياسية فوقية، والتي تجعل من سؤال التحول من التقليد إلى التحديث لا الحداثة، معاقا في وضع كهذا، ذاكرة موشومة بالعنف الرسمي، تلبي فضول وشغف عدد واسع من القراء، وتخرج البحث التاريخي من دائرة الاختصاص، والقواعد المنهجية الصارمة، نحو معانقة أمل بناء المشروع المجتمعي المجهض، مشروع بناء الانسان المغربي المتصالح مع التاريخ والذاكرة، انخراط يجعل الكتابة التاريخية، تستجيب لانتظارات توصيات الهيئات الحقوقية الدولية، ومطالب المنظمات الحقوقية المغربية من الداخل، وانشغالات الرأي العام بمختلف أطيافه.

والحال، يسجل للأدب انخراطه المبكر في الكشف عن ملابسات الاعتقال والتعذيب، وكشف النقاب عن ممارسات جلادي الأمس، فقد أثارت رواية " السجينة" لمليكة أوفقير و"حدائق الملك" لفاطمة أوفقير و"الغرفة السوداء: درب مولاي الشريف" لجواد مديدش و"تازمامارت": تذكرة ذهاب وإياب إلى الجحيم" لمحمد الرايس و"الزنزانة رقم 10" لأحمد المرزوقي وغيرها...صخبا سياسيا وحقوقيا، وتتبعا إعلاميا قويا بالمغرب وخارجه، نظرا لحرارتها وجرأتها في الكشف عن دهاليز المعتقلات السرية، وغذت بذلك شغف القراء والباحثين المهتمين بتفاصيل المرحلة، لاكتشاف زوايا الظل والعتمة في تاريخ مغرب الحسن الثاني، والوقوف على حقيقة الأحداث التي شهدها المغرب في فترة ما بعد الاستقلال، انطلاقا من ذاكرة الأفراد المعايشين لها ومذكرات الفاعلين[212].

في المقابل، يسجل للبحث التاريخي تخلفه عن الركب[213]، قياسا بباقي المباحث الانسانية الأخرى، التي اقتحمت منذ وقت مبكر قضايا التاريخ الراهن، أو التاريخ الفوري بتعبير الصحفي الفرنسي جون لاكوتير، ضمن المؤلف الجماعي" التاريخ الجديد" لعراب الجيل الثالث من مدرسة الحوليات الفرنسية جاك لوغوف، وذلك في ظل هيمنة النزعة الوطنية الحماسية التي استبدت برفاق جرمان عياش في كتابة مشروع التاريخ الوطني، لحظة المجابهة المباشرة مع الكتابات الكولونيالية، والانتصار للوثيقة المخزنية

1974.

212 - أحمد البخاري، ضابط سابق في المخابرات المغربية، ضمن سلسلة حلقات بثتها قناة الجزيرة القطرية حول " أسرار مقتل المهدي بن بركة" سنة 2009. وكذلك:
A. El Ouafi, Opération Boraq, f5, 16 aout 1972, L'attaque du Boeing royal, Témoignage recueillis par François Tortet, Casablanca, 2004.

213 - M. Monjib, La monarchie Marocaine et la lutte pour le pouvoir, Hassan 2 face à l'opposition nationale, M. Kenbib, Le Maroc indépendant, 1955- 2005, Essai de synthèse, Commission scientifique du cinquantenaire, Rapports transversaux, www. rdh50. ma, A. Laroui, Hassan 2 et le Maroc, Casablanca 2005,M. Bouaziz Mostapha, Aux origines de la Koutla démocratique, Publication de la faculté des lettres et des sciences humaines de Casablanca, Ain chouk ,1997.

والارشيف المحلي[214]، إننا نقف بعد اختمار وتأمل، على عسر هذا التوجه، وارتكاسته المنهجية والاستوغرافية، في بناء وعي تاريخي نقدي لتاريخ المغرب، فهل يعني الانخراط في كتابة التاريخ الراهن فشل ضمني في مقاربة التاريخ الوطني من زاوية التركيب[215]؟ والاستعاضة عنه بكتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي المونوغرافي؟ كما ثم مع المونوغرافيات الرائدة لأحمد التوفيق[216] وعلي المحمدي[217] وعبد الرحمان المودن[218] وغيرهم، أم هو هروب من تاريخ الحماية وعقدتها وأسئلتها الحارقة؟ وهل المسألة لها علاقة بالأرشيف الخارجي؟ أم بهيمنة الدراسات الأجنبية في هذا المسار من البحث، التي تشكل تحديا سيكولوجيا للباحثين المغاربة، ومن ثم استحالة تجاوز ما كتبته الاسطوغرافيا الأجنبية عن تاريخ المغرب من قبيل دانييل ريفي وليام هوينسطن بيير فيرمورين...؟ ثم هل يستقيم الحديث عن التاريخ الراهن، من دون المرور الطبيعي من تاريخ الحماية؟

وعليه، يجسد الانخراط في كتابة التاريخ الراهن المغربي، والمساهمة في تفكيك أسئلة اللحظة التاريخية، أمرا لا يخلو من هواجس، مرد هذا الانهجاس، جاذبية القرن التاسع عشر التي مارست استبدادها على عموم مؤرخي الجامعة المغربية، وأفرزت دراسات مرجعية رائدة، وأخرى استنساخية مكررة، جعلت البحث التاريخي لا يتخذ مساره الطبيعي، ويقفز على مرحلة الحماية الفرنسية، التي تركت رجة عميقة على مستوى البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنية داخل المجتمع المغربي، وندوبا مشوهة في الجسد المغربي، وتركت وراءها أسئلة تاريخية كثيرة، واشكالات مهجورة، دون أن يتمكن البحث التاريخي الخوض فيها.

"في الذاكرة والتاريخ: فصل الالتباس"

يحيل مفهوم الذاكرة إلى آليات تمتل الماضي واستحضاره، هذا التمثل الاسترجاعي لنسق الذهنيات والتصورات الرمزية يستدعي حفرا شاملا في الذاكرة البشرية، كإنتاج اجتماعي وسياسي وثقافي، وتفاعلا لعدة مباحث إنسانية من تاريخ، فلسفة، علم نفس، سوسيولوجيا، انتربولوجيا، علوم سياسية، لسانيات، سيميولوجيا...فالذاكرة بتوصيف المؤرخ الفرنسي بيير نورا تمتل " ما تبقى من الماضي في أذهان الناس،

---

[214] - أشرف جرمان عياش على إنجاز عدة مونوغرافيات حول تاريخ القبائل، الزوايا، المدن، في سياق الرد على الاستوغرافيا الكولونيالية.

[215]- لاتزال الاستوغرافيا المغربية تعاني من عقدة التركيب في سياق هيمنة الأبحاث المونوغرافية، والتاريخ العلائقي، والتحقيق، على الرغم على صدور كتاب "تاريخ المغرب: تركيب وتحيين" سنة 2011م، تحت إشراف محمد القبلي، عن منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الذي تطلب عملا جماعيا ضخما لأكثر من 40 باحث.

[216] - أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: اينولتان 1850- 1912، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 1983.

[217] - علي المحمدي، السلطة والمجتمع في المغرب، نموذج أيت باعمران، الدار البيضاء، 1989,

[218] - عبد الرحمان المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون والمحزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 1985.

أو ما يتصورونه بخصوص هذا الماضي" فهي موروث ذهني تختزل مسيرة من الذكريات الفردية والجماعية التي تغذي التمثلات المجتمعية[219].

إنها مجرد صورة عن ماضي وقع استحضاره، اختزاله، تضخيمه، تقزيمه، تبريره...وفق حاجيات اللحظة وتناقضات الراهن، غالبا ما تغلب عليها صفة "القدسية" و" الرمزية" كصورة بعض الشخصيات السياسية والدينية، صورة قد تمتزج فيها الصورة بالخيال، وتقود نحو اختفاء الواقع بتعبير جون بوديار، وظهور ما "فوق الواقع."[220]

وعليه تتميز الذاكرة بتعدد المرجعيات، بتعدد الأفراد، الجماعات، المؤسسات...بالشفهية والإنتقائية والاحتفالية، بهدف تخليد الماضي، والاحتفال بالحاضر كنسق استمراري، عبر ممارسة الحكي والتذكر، مما يجعلها لصيقة بذاتية النظرة ونفسانية الحالة.

فالشهادة أو الذاكرة سواء كانت فردية أو جماعية تبقى ذات سمات ذاتية، انفعالية، رمزية، تفتقر إلى جهاز مفاهيمي، وتعمل بكيفية إرادية او لا إرادية على تضخيم/ تقزيم الوقائع وفق حاجيات اللحظة، ورهانات السياق المجتمعي، ومن ثم تبقى مجرد "صورة عن ماض متخيل وقع استحضاره" مطبوعة بقداسة ممجدة، كما يظهر في تقديس صورة بعض الرموز السياسية، مثل محمد الخامس المهدي بن بركة، عمر بن جلون، عبد الرحيم بوعبيد، عبد الله ابراهيم[221].

بينما التاريخ من حيث هو اشتغال مفاهيمي، موضوعاتي وإشكالي في آن، يقوم على المعالجة المنهجية، على "ترتيب الماضي" بعبارة لوسيان فيفر، على عملية بناء وإعادة بناء، كتابة وإعادة كتابة، صياغة وإعادة صياغة، لهذا الماضي، انطلاقا من سلسلة عمليات منهجية متداخلة، تشتغل بالتحليل والتأويل والنقد.[222]

هذا الترتيب أو البناء لا يتأتى إلا بجهد متعدد اللحظات، لحظة إقامة البرهان الوثائقي، لحظة التفسير والفهم، ولحظة الكتابة، مما يطرح معه استعصاءات تمثيل شيء غائب وقع سابقا، واستعصاء ممارسة مكرسة للاستذكار النشط للماضي، والتي رفعها التاريخ إلى مستوى إعادة البناء[223]، فتنطوي بذلك، عملية معالجة أحداث الماضي على تعقيد منهجي ومسؤولية كبيرة من الوجهة التاريخية الصرفة، فالتاريخ كما

---

[219] - بيير نورا، "التاريخ والذاكرة "(1978)، تعريب محمد حبيدة، "من أجل تاريخ إشكالي"، ترجمات مختارة، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالقنيطرة، 2004، ص 100.

[220] - جون بودیار، المصطنع والاصطناع، ترجمة جوزيف عبد الله، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008.

[221] - عبد الأحد السبتي، التاريخ والذاكرة، م س،ص 212.

[222] -Pierre Nora, Le retour de l'évènement, in P. Nora et J. le Goff (dir) Faire de l'histoire, tome 1, Nouveau problèmes, Paris, Gallimard, 1974, PP 210 - 228

[223] - بول ريكور، الذاكرة، التاريخ النسيان، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الاولى2009، ص، 217.

قال بول فين هو "العلم الاجتماعي الوحيد الذي لا يتحكم فيه صاحب الاختصاص وحده، لأن التاريخ هو تناول متعدد، فبالإضافة إلى التناول الجامعي، التخصص الاحترافي، هناك تناول مدرسي من حيث المقررات الدراسية، وتناول إعلامي من حيث المقالات الصحفية والأشرطة الوثائقية المعروضة بالقنوات التلفزيونية، وتناول من حيث استعمالات الماضي لدى عامة الناس".

تقترن الذاكرة التاريخية أو الشهادة بتعبير بيير نورا "بإعادة بناء المخيال وخروج المكبوت"[224]، فالذاكرة تحكمها الغائية، وتشتغل من منظور الواجب تحت شعار "حتى لا يتكرر هذا" وغالبا ما تخضع لتوجهات سياسية وأخلاقية، من أجل بناء التجانس والإلتحام، كما برز في فرنسا لحظة انكسار الوجدان الفرنسي سنة 1870، حينما تعبأ مؤرخون من قبيل ارنست رينان وارنست لافيس وساتوبريان لإعادة بناء مفهوم "الأمة" و"اللحمة الهوياتية" إذ يقول في هذا الصدد " ينشأ جوهر أمة ما عندما يتقاسم أفرادها أشياء كثيرة، وأيضا عندما يتمكنون من نسيان أشياء مثيرة.[225]

بينما الكتابة التاريخية تقوم على الموضوعية والتحليل والنقد، فالقارئ ينتظر من المؤرخ فك تعقيدات الماضي سواء كان قريبا أو بعيدا، ومساءلة الماضي والسعي إلى فهمه، هذا الفهم يقوم على النقد، على الاحتمال، على النسبية، لإعادة بناء نسق التطورات والاستمراريات الزمنية وسببية الأشياء، بعيدا عن أشكال الحكم المسبقة، لقد سبق لبول ريكور أن تحدث على أن " القاضي هو الذي يحاكم ويعاقب، والمواطن هو الذي يناضل من أجل النسيان، ومن أجل انصاف الذاكرة، أما المؤرخ فمهمته تكمن في الفهم دون اتهام أو تبرئة"[226].

لقد تتبع المؤرخ المغربي عبد الأحد السبتي تفاعلات قضية رجل الاستخبارات المغربية السابق أحمد البخاري بخصوص قضية المهدي بن بركة، وأثار قضية العلاقة التي تربط بين التاريخ والذاكرة، ودعا المؤرخين إلى ضرورة التمييز بين صنفين من الذاكرة: الذاكرة الجماعية والذاكرة التاريخية، بين الشهادة التاريخية والكتابة التاريخية. ومع ذلك، تبقى الذاكرة أكثر وقعا من التاريخ، بالقياس على درجة تأثيرها على أوساط عامة الناس، مع ما تختزنه ذاكرة هؤلاء من أحكام مسبقة موروثة جيلا عن جيل، فالتاريخ كما قال بيير نورا " ينتج كثيرا لكنه لا يقنع إلا قليلا، ليس فقط من حيث التلقي لدى المتمدرسين، بل حتى لدى المثقفين"، كما لاحظ كيف أن خزانات بأكملها حول بطلان العنصرية لم تتمكن من التغلب على الأحكام العنصرية المسبقة.

---

[224] - بول ريكور، الذاكرة، التاريخ النسيان ، م س، ص، 211.

[225] Ernest Renan, Qu'est-ce que une nation, conférence, Sorbonne, 11 mars 1882, Paris, 1992, PP, 41- 42.

[226] - بول ريكور، كتابة التاريخ وتمثل الماضي، تعريب محمد حبيدة، من أجل تاريخ اشكالي، م س ، ص ، 182.



وعلى مستوى التاريخ الحديث، تتبعت المؤرخة الفرنسية لوسيت فالنسي موضوع الذاكرة من نافدة معركة وادي المخازن في كتابها المرجعي "أساطير الذاكرة"[227]، ووقفت على تحليل مستويات وأنساق الذاكرة، من منظور مخلفاتها الذهنية والرمزية والانفعالية عبر ثلاثة مستويات:

1- مضمون الذكريات من زاوية الفائز والخاسر " الذاكرة المغربية/ الذاكرة البرتغالية".

2- حول وسائل إنتاج الذكرى "التخليد والنسيان".

3- حول ما ظل خارج هذه الوسائل " التمثلات والأوهام".

يعيد كتاب "أساطير الذاكرة" بناء نسق من ذاكرة معركة الملوك الثلاثة، من زاوية بنائها الذهني، كما وقع تخليده في الذهنية المغربية، وكما وقع نسيانه في الذهنية البرتغالية، من زاوية توثيق الذاكرة وتخليدها بالنسبة للكتابة المغربية، وبترها في الكتابة البرتغالية، من حيث علاقة الذاكرة المكتوبة بالذاكرة الشفهية، من خلال نظرة الذات للذات ونظرة الذات للآخر.

لقد ولد انتقال خبر معركة وادي المخازن شفهيا حسب لوسيت فالنسي تمثلات واحساسات مختلفة: بين المغاربة والبرتغاليين، إحساس بالعظمة والازدراء، يقابله إحساس بالغبن وعسر هضم الهزيمة.

وعلى أية حال، بدأ التفكير التاريخي في موضوع "التاريخ والذاكرة" نهاية سبعينيات القرن الماضي وتحديدا 1978م، السنة التي أصدر فيها المؤرخ الفرنسي بيير نورا مبحثا نظريا يحمل عنوان " الذاكرة الجماعية" ضمن كتاب جماعي " التاريخ الجديد" تحت إشراف جاك لوغوف، غير أن محاولات التأصيل لهذا النوع من الكتابة التاريخية، يعود بنا إلى الدراسة المرجعية التي ألفها موريس هالفاكس حول "الأطر الاجتماعية للذاكرة"[228] خلال العشرينات، من خلال التركيز على سيكولوجيا الذاكرة، ليتعزز هذا النوع من المباحث التاريخية بصدور عدة انتاجات تاريخية، فقد إهتم مثلا الفيلسوف الفرنسي بول ريكور في سياق المجابهة العلنية مع مؤرخي الحوليات في فترة السبعينات بالتركيز على أهمية السرد والحكي في بناء التاريخ، من خلال مؤلفيه المرجعين " الزمن والسرد"و" الذاكرة التاريخ والنسيان".

" التاريخ والذاكرة: نحو بناء ورش جديد

أتاحت ظرفية الانفراج السياسي أمام مختصي الزمن رفع الطابوهات، وتقليص مساحة المحظور على الوقائع والأحداث، من خلال التحرر من عقدتين كبيرتين: أولا، عقدة الحماية[229]، أي ثقل التحول الذي

---

[227] L, Valensi, Fables de la mémoire, La glorieuse bataille des trois rois, paris, 1992.
[228] M, Halbwachs, Les cadres sociales de la mémoire, Paris, 1925, p159.
[229]- يلاحظ المهتم بتاريخ الحماية هيمنة الأجانب على الاستوغرافيا الكولونيالية ، وتتضح هذه الهيمنة حتى بعد الاستقلال من خلال اعمال المؤرخ الفرنسي دانييل ريفي الذي أنجز بحثا في البداية عن القيم

أحدثه الحماية كمنظومة تغيير شاملة، وضرورة تفسيره تفسيرا تاريخيا بعيدا عن أي تشنج معرفي، وعقدة ما بعد الحماية، أي ثقل المخزن وتقلبات الأحوال السياسية التي عصفت بآمال وأحلام المغرب الجديد، بعيدا عن أي حساسية قومية.

ثمة فرق منهجي واضح بين الذاكرة التاريخية والذاكرة الجماعية، فالأولى عبارة عن ذاكرة نقدية، تأويلية، فكرية، بينما الثانية تجسد ذاكرة انطباعية، انتقائية واحتفالية...هذا التضارب يجعل الأوساط الاعلامية والسياسية تخلد ذكرى الملاحم والأمجاد لتشكيل مفهوم "الأمة"، وبناء التلاحم الاجتماعي، كذكرى معركة وادي المخازن 1578م، وذكرى أنوال 1921م، وذكرى تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال 1944، من خلال توظيف معجم تاريخي: الملاحم، البطولات، الأمجاد، المقاومة، الاستقلال، وتتغاضى في المقابل عن توثيق وتخليد الانكسارات. لقد تنبه بول ريكور إلى هذه عمق هذه القضية، وتساءل عن الافراط الذي يخلفه تخليد الذكرى الذي قد يقود إلى حجب التاريخ بل وربما مصادرته ؟[230]

وعبر هذا الانهجاس الذي عبر عنه صاحب "التاريخ الذاكرة والنسيان" ترتفع هواجس مصاحبة، لماذا لا يتم تخليد الانكسارات الوطنية ورفعها إلى السطح كهزيمة اسلي 1844م وهزيمة تطوان 1859م ومعاهدة الحماية 1912؟ وماذا عن المخزن؟ كيف تتمثل الذاكرة الجماعية كلمة المخزن؟ كيف تفهمها بالمقابل الذاكرة التاريخية؟ كيف تتجلى معانيها السياسية والمجالية؟ كيف تتفاعل هذه الكلمات في الوقت الراهن؟ من حيث الدلالة والتوظيف السياسي والتمثل العامي؟[231] هي أسئلة شائكة تستدعي حفرا تاريخيا عميقا لكنها ممكنة التناول.

الذاكرة والتاريخ: اضاءات منهجية

يقدم المؤرخ عبد الأحد السبتي تخريجات منهجية حول كتابة "التاريخ والذاكرة" لملامسة عمق أقرب القضايا التاريخية لمغرب اليوم ، فدراسة التاريخ السياسي/ الحدثي لا يعني بشكل من الأشكال عودة إلى انبعاث الحدث السياسي، وردة منهجية عن مكتسبات قلعة الحوليات، ومناصرة لعراب التاريخ المفتت فرانسوا دوس، بقدر ما هي حسب إفادة دائما عبد الأحد السبتي محاولة للكشف عن البنية، لأن الحدث ينتج

العام الفرنسي "ليوطي" وآخر عن "محمد الخامس والحماية"، وفي مرحلة موالية عن "تاريخ المنطقة المغاربية":

D, Rivet, Lyautey et l'institution du Protectorat français au Maroc, paris ,1988
D, Rivet, le Maroc de Lyautey a Mohamed 5, le double visage du Protectorat, paris, 1999.
Daniel Rivet, Le Maghreb à l'épreuve de la colonisation, Paris, 2002.

وأيضا بيير فرمورين، "تاريخ المغرب منذ الاستقلال"، ترجمة عبد الرحيم حزل، افريقيا الشرق، 2010.

[230] بول ريكور، الذاكرة، التاريخ النسيان ، م س، ص 150.

[231] - تناول بول ريكور مسألة الذاكرة من زاوية النسيان، فهل يجتهد النسيان أو بالأحرى إجتهاد الذاكرة الجماعية في نسيان الأشياء ضمن سيرورة تشكل الأمة؟ وهل نعتبر مسح الطاولة كما يقال شرطا أساسيا للسير نحو الأمام والعمل على التجديد وإعادة التأسيس؟

البنية ويؤثر فيها في نفس الوقت، ومن وجب التمييز بين بيت التاريخ الحدثي/ الوضعاني، والتاريخ السياسي اعتمادا على مقياس الزمن الطويل الذي بإمكانه الإهتمام بقضايا أكثر عمقا من التاريخ الحدثي[232]، عوض التركيز على الأشخاص وتسلسل الأحداث والوقائع. مقاربة نوعية تمكن من مناقشة الآليات الاجتماعية للسلطة والعلاقات بين الدولة والمجتمع. وهذا التناول الجديد لقضايا التاريخ الراهن ، يتم عبر قنوات متعددة منها، الاهتمام بالسياسة كشكل اجتماعي وثقافي، ومقاربة المؤسسات السياسية على نحو انتربولوجي، فالتاريخ أمامه خيار واحد لإثبات مشروعيته العلمية، عليه أن يتحول إلى انتربولوجيا إجتماعية كما قال رائد التحليل الانقسامي افنس بريتشارد.

الكتابة التاريخية والاعتقال السياسي:

يفضي استقراء "استوغرافيا الأدب" التي تناولت جرح الذات المغربية سنوات الاعتقال السياسي إلى الاقرار بحضور وفرة كمية ونوعية، في ما يعرف ب"أدب السجون" من روايات ومجامع قصصية ومذكرات ورسائل السجن، وهي مكتوبة بالعربية أو الفرنسية، نشر بعضها بفرنسا، ونشر عدد منها بالمغرب، وقد صدر هذا الإنتاج منذ آواخر تسعينيات القرن الماضي، وتحمل هذه النصوص المتنوعة شهادات بدلالتين:

أولا: من حيث المضمون: شهادات حول سنوات الجمر والرصاص.

ثانيا: من حيث أشكال التلقي: شهادات حول إرادة معلنة لطي صفحة الماضي.

وبالتالي، أفرزت المرحلة كتابات متعددة ألفها أحيانا، فاعلون سياسيون مثل المذكرات السياسية، وأحيانا مسؤولون فرنسيون عن فترة الحماية بالمغرب، وأخرى من طرف مناضلين من الحركة الوطنية والمقاومة المسلحة، وإسهامات لشخصيات قريبة من النظام الملكي من بينهم ضباط مرتبطون بأجهزة سرية متعددة، إضافة إلى حوارات مطولة تصدرت أعمدة الصحافة المكتوبة.

إنه اهتمام جديد بالذاكرة وبالشهادة التاريخية، حضور ساخن، وصاخب، في غياب مختصي الزمن، فما يحدث ببلادنا هو إنتاج الذاكرة، وهو عنصر فاعل ومعبر عن ظرفية تاريخية معينة، فالمؤرخ ملزم بنزع الصفة الميتولوجية عن عدد من الأحداث والفاعليين، مقابل تفادي السقوط في خلق ميتولوجيات ورموز جديدة[233]، إلى حد جعلت المؤرخ الفرنسي جيرار نوراييل في كتابه " الأبناء الملعونون للجمهورية" ينتقد بحدة هذا التوجه بقوله " إن التاريخ الذي يقدم في التليفزيون ليس تاريخا، وإنما مشاهد من الذاكرة، إنهم متعهدو الذاكرة الذين يتحدثون في التلفزيون، هم أناس يصنعون روايات سردية بغرض سياسي، وليست روايات مبنية ومفسرة لوقائع الماضي، وإنما مصنوعة للحكم على شيء ما ".

---

[232] ـ عبد الأحد السبتي، التاريخ والذاكرة، م س، ص، 214-215.

[233] ـ عبد الأحد السبتي، التاريخ والذاكرة، م س ، ص ، 204.

وهكذا، يصبح أمام المؤرخ رصيد هائل من الوثائق والأرشيفات قد تساعده على إنضاج عملية التحليل والتأويل، شريطة أن يتوفر على تكوين خاص، ومتشبع بمناهج ومقاربات متعددة، وهو ما يظهر في انفتاح الجامعة المغربية، وخاصة كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط على هذا الورش التاريخي، فقد أخذت الصحافة الفرنسية مثلا، منذ الخمسينيات من القرن العشرين تنفتح على تاريخ العمالة المرتبط بالاحتلال النازي لحظة الحرب العالمية الثانية، وتقيم حفرا تاريخيا في ذاكرة موشومة بالألم والعذاب.

ويقف المتتبع لتجاذبات الذاكرة والتاريخ في تاريخ المغرب، حضور تناقض في إنتاج الذاكرة بين الفرقاء السياسيين، فهناك فاعلون سياسيون ينتظرون تدخل المؤرخ حينما يتم الحديث عن وثائق ذات حساسية معينة، ولا يعبرون عن نفس المطلب حينما تنشر وثائق تدين ممارسات تيارات سياسية معادية، وهذا ما يعقد من مهمة المؤرخ، بين الرغبة في توضيح ملابسات الماضي، وبين هاجس حماية صورة بعض الشخصيات. وهو ما نلمسه من إقدام بعض الدراسات التاريخية على نشر بعض الوثائق، بخصوص تاريخ الحركة الوطنية، مما يوحي أن الحديث عن بعض أفعال الحركة الوطنية أصبح من الطابوهات والمحرمات، وهو ما قد يضرب بعمق مفهوم الحياد القيمي الذي يتنباه المؤرخ، فكتابة الذاكرة هي التي أتاحت إمكانية الكتابة التاريخية حول الماضي القريب، من خلال وجود عرض وطلب للتاريخ القريب، كما أن كتابة التاريخ الراهن أثارت تعدد المحكيات وساهمت في تراجع مساحة المحظورات.

فالمؤرخ يساهم في بناء منهجي لإنتاج الذاكرة، من خلال وضع الشهادة المحكية ضمن سياقات تأليفها ونفسانية منتجيها ومواقع أصحابها، ويعمل على توضيب الشهادات التاريخية، بحيث يتم التوفيق بين نسيج من المقتطفات المأخوذة من الشهادات، وبين شبكة موضوعاتية لها صلة بإشكاليات محددة، بحيث لا يجب أن يغيب عن ذهن المؤرخ، أننا بصدد ذاكرة تمت إثارتها في سياق معين تحدده رهانات معينة.

مشكلات التاريخ الراهن:

تكمن مشكلات التاريخ الراهن

المشكلة الأولى: طبيعة ومصادر التاريخ وطريقة التعامل معها: مذكرات، صحف، روايات شفهية... التي لا تخلو من مشاكل بفعل أزيميتها، أي افتقارها لما يكفي من الاختمار، واتساع تداولها بين مختلف المتخصصين. بيد أنها أثبتت خصوبتها في انتاجات العلوم السياسية والانتربولوجيا مثل دراسات كل من دافييد هارت، ديل ايكلمان، جون واتربوري، المهدي بنونة وآخرين.

المشكلة الثانية: قضية الزمن ونقص المسافة بين الباحث والموضوع، مما يثير تحفظ العديد من الباحثين، وتطرح معها عدة أسئلة، هل بإمكان المؤرخ أن يبتكر أدوات منهجية جديدة لمعالجة التاريخ الراهن وفهمه وخلق مسافة منهجية من نوع آخر بينه وبين الأحداث، مسافة منهجية أكثر منها مسافة زمنية.



فالتاريخ الآني أو التاريخ الفوري بتعبير الصحفي الفرنسي جون لاكوتير هو سرد للأحداث واجتهاد في تأويلها وتفسيرها، تفسير ما هو متفاعل ليس سهلا، فقد يتحول التفسير إلى تشخيص، وقد يسقط التشخيص في التعليق، وهما معا أي التفسير والتشخيص لا يخلوان من تقلبات الساعة.

تراكم وثائقي حول استحضار الماضي المنسي والمسكوت عنه، حول العنف والعنق المضاد- يوظفه المؤرخ لإحداث نوع من التحليل النفساني الذاتي، عبر ممارسة الحكي عن تجربة سنوات الجمر والرصاص سواء كانت تجربة سياسية جماعية قبلية يحول الذاكرة المخفية الى ذاكرة علنية، هو محاورة هادئة لفترة تاريخية صاخبة لتوليد ما يمكن توليده من أفكار ومراجعات نقدية حول تضارب الذاكرة الرسمية وذا كرة الافراد.

خلاصات عامة:

وهكذا، يتأتى اقتحام ورش كتابة التاريخ الراهن بالمغرب، ومحاورة الذاكرة التاريخية من خلال الملاحظات المنهجية التالية:

أولا: ضرورة تنسيب العلاقة بين المسافة والموضوع، وما يفرضه من جرأة منهجية.

ثانيا: البحث التاريخي يتقدم وفق حركة تعاقب وتفاعل بين مسلسلين: تعميق الفرضيات والإشكاليات وتكثيف مجهود جمع الوثائق.

ثالثا: النضال من منح حرية اوسع لمختصي الزمن في مجال البحث العلمي بغرض الانتصار "للحقيقة التاريخية".

رابعا: ضرورة الانتباه إلى النصوص الشفهية ذات القيمة الاخبارية والاثنولوجية التي تعكس حكم المجتمع عن ذاته عبر أصوات الرواة وتعليقات المستمعين.

ولأن التاريخ باعتباره استوغرافيا بعبارة العروي، فإن الذاكرة تقدم إفادة مهمة في الكشف عن الجوانب الخفية والمعتمة من التاريخ، أو ما يمكن نعته ب"التاريخ الصامت"، وكشف أماكن الذاكرة سواء كانت ذاكرة رمزية أو مادية، والانتقال مت ذاكرة الأماكن إلى أماكن الذاكرة، من شأنه تخليد وتوثيق الذكريات الوطنية وخلق الالتحام الاجتماعي، كذكرى 4 غشت 1578 وذكرى 11 يناير 1944. غير أن تخليد الذكريات يبقى معرضا لمنزلقات كثيرة، منها تغييب التاريخ، والتركيز على كلام الشاهدين، على النحو الذي يخدم قضية معينة.

يبدو أن انخراط المؤرخين في كتابة ذاكرة الزمن الراهن محاولة لتحديد المعرفة التاريخية، وفتحها على ملابسات التاريخ القريب من الذاكرة، بعد ان كان حكرا على مختصي العلوم السياسية والانتربولوجيا وأقلام الصحفيين، وهو انخراط لا يخلو من مشكلات منهجية ومعرفية، من حيث مقاربة زمن فائر، متوتر، يدخل ضمن ما هو سياسي ، وليس ما هو تاريخي حسب المؤرخين التقليدين، هذا الاقتحام يطرح عدة قضايا منهجية واستوغرافية، فهل العودة بين الحاضر ومقاربة الماضي مسالة تخص الزمن القريب

دون غيره؟ وهل يمكن للمصالحة بين الحكم والمجتمع والماضي أن تثير أسئلة المؤرخ خارج نطاق كتابة التاريخ القريب؟

ثمة بياضات قاتلة ترصع تاريخ مغرب الحماية، تجعل ورش كتابة التاريخ الراهن معاقا ومشوها، مفتقدا لوعي وتأطير معرفي، اسئلة كثيرة تشكل مدخلا نحو فهم التباسات التاريخ الراهن، من قبيل لماذا لم يفرز التدافع السياسي بالمغرب نخبة وطنية قادرة على بناء معالم مشروع مجتمعي وطني لعد الاستقلال؟ لماذا ظلت الاتكالية وغياب القرارات الحاسمة تهيكل الحياة السياسية المغربية؟ لماذا لم يحسم الوفد المغربي المشارك في محادثات اكس ليبان مسالة الاستقلال اشكالية الوحدة الترابية؟ وهل يمكن تحميل مسؤولية عسر الانتقال الديموقراطي والتحول المعاق إلى إرث الاستعمار الفرنسي والاسباني؟ هل كانت فترة الحماية قوسا في التطور التاريخي المغربي سرعان ما جاء الاستعمار ليغلقه وتستمر البنية الاجتماعية والاقتصادية في انتاج التقليد؟

وختاما، يجسد عبور مختصي الزمن من جسر تاريخ الحماية والتاريخ الراهن، مدخلا نحو بناء الديموقراطية والحداثة والعدالة الاجتماعية والوحدة الترابية، والاجابة عن الاسئلة الاستراتيجية لبلد لا زال لم يستكمل بعد وحدته الترابية، انها اسئلة الراهن المغربي، التي تجعل من البحث التاريخي مساهما في بناء ورش المواطنة، مغرب المصالحة الحقيقية مع الماضي العنيف، وتخرج التاريخ والكتابة التاريخية من حالة الاغتراب التي تعيشها.

المراجع المعتمدة:

1- عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، الدار البيضاء، 2005.

2- محمد حبيدة، بؤس التاريخ، مراجعات ومقاربات، دار الامان، الطبعة الاولى، 2015.

3- عبد الاحد السبتي، التاريخ والذاكرة، اوراش في تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الطبعة الاولى، الدار البيضاء، 2012.

4- حسام هاب، تاريخ الزمن الراهن، المفهوم والاشكاليات، ضمن مجلة وجهات نظر، عدد مزودج، 56-57، 2013.

5- بيير فرمورين، تاريخ المغرب منذ الاستقلال، ترجمة عبد الرحيم حزل، افريقيا الشرق، 2010.

8- صالح شكاك، من المغرب المعاصر الى المغرب الراهن: اشكاليات الاستمرار والتحول، ندوة التاريخ الراهن ومهام المؤرخ، تنسيق محمد كنبيب، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومحاضرات، رقم 158، الطبعة الاولى، 2009.

9- ديل ايكلمان، المعرفة والسلطة في المغرب، صور من حياة مثقف من البادية المغربية في القرن العشرين، تعريب محمد أعفيف، مركز طارق بن زياد للدراسات والابحاث، الرباط، 2000.

10- جون واتربوري، أمير المؤمنين والنخبة السياسية بالمغرب، تعريب عبد الغني أبو العزم، عبد الأحد السبتي، عبد اللطيف الفلق، منشورات مؤسسة الغني، الرباط، 2004.

الندوات:

1- ندوة التاريخ والذاكرة (2001) منشورة بالعدد الاول من مجلة البحث التاريخي، 2003.

2- ندوة تاريخ المغرب: تحديد مجالات ومقاربات جديدة، أعمال الورشة الأولى لأيام تاريخ المغرب المغرب 2004، منشورات جامعة الاخوين، افران، 2006.

3-ندوة من الحماية الى الاستقلال: اشكالية الزمن الراهن، 2005، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 2006.

بالفرنسية:

1- Bennouna Mehdi, Héros sans gloire, échec d'une révolution, 1963 1973, Casablanca, 2002.
2- Bouaziz Mostapha, Aux origines de la Koutla démocratique, Publication de la faculté des lettres et des sciences humaines de Casablanca, Ain chouk ,1997.
3-Dalle Ignace, Le règne de Hassan 2 ,1961-1999 : Une espérance brisée, Paris/Casablanca, 2000.
4- El Ouafi Ahmed, Opération Boraq, f5, 16 aout 1972, L'attaque du Boeing royal, Témoignage recueillis par François Tortet, Casablanca, 2004.
5-David Montgomery Hart, The Aith Waryagher of the Morrocan, Rif an Ethnography and History, Tucson, 1976.
6- Kenbib Mouhamed, Le Maroc indépendant, 1955- 2005, Essai de synthèse, Commission scientifique du cinquantenaire, Rapports transversaux, www. rdh50. ma.
7- Laroui Abdellah, Hassan 2 et le Maroc, Casablanca 2005.
8- Monjib Maati, La monarchie marocaine et la lutte pour le pouvoir, Hassan 2 face à l'opposition nationale, Paris, 1992.
9- Palazoli Claude, Le Maroc politique de l'indépendance a 1973, paris, 1974.





التأثيرات الحضرية العثمانية على المغرب خلال القرن 16



نور الدين أغوثان
طالب باحث في التاريخ المعاصر
كلية الآداب ظهر المهراز- فاس

عرف القرن السادس عشر عدة تغيرات جذرية على الساحة الدولية. تمثل أساس في ظهور العثمانيين بمنطقة شمال إفريقيا باستثناء المغرب الأقصى، الذي ظل يحتفظ بكيانه السياسي المستقل تحت حكم أسرة فتية تمثلت في الدولة السعدية التي قامت إيديولوجيا على أساس الجهاد وتحرير الثغور المحتلة من طرف الإيبريين. فحملها المغاربة على الأكتاف، وتمكنت من وضع حد لطموحات الأتراك المتزايدة وكبح جماح القوى المسيحية التي تحالفت فيما بينها لفرض وجودها بالضفتين الشمالية والجنوبية للبحر الأبيض المتوسط. وهكذا أصبح البحر الأبيض المتوسط مجالا للصراع بين قوى متباينة من حيث الحضارة والقوى العسكرية.

إن فرض العثمانيين لسيطرتهم الميدانية على إيالات شمال إفريقيا جعلتهم يحتكون بصفة مستمرة مع المغاربة. مما غذى أواصر التواصل الثقافي السياسي والحضاري بين الطرفين. فرغم طابع الحيطة والحذر الذي اتسمت به العلاقات بين الجانبين، فإن المغاربة ظلوا يتأثرون بكل نواحي الحياة العثمانية من

نظم سياسية وعسكرية وعادات وتقاليد إلى درجة يجعلنا من الصعب التمييز بين ماهو مغربي قح وماهو عثماني خالص.

ومما يزيد الأمر أهمية هو أن تلك المؤثرات الحضارية التي دخلت إلى المغرب مازالت سائدة إلى يومنا هذا مما يدل دلالة واضحة على أصالة وعراقة العلاقات العثمانية المغربية في هذا الميدان.

فماهي قنوات الاتصال التي كانت تربط بين المغرب والعثمانيين؟ وماهي التأثيرات الحضارية العثمانية التي دخلت على المغرب خلال القرن السادس عشر؟

قنوات الاتصال المغربي العثماني.

لم يحل الوجود العثماني بإفريقيا الشمالية دون انقطاع الاتصال بين المغرب الأقصى والإيالات العربية بل ازدادت قوته نتيجة لعوامل الجوار، وحدة الدين واحتضان العثمانيين للأماكن المقدسة. فكانت عوامل ربطت الحجاج وطلاب العلم ورسل السلاطين وحملة البضائع وزعماء الصنائع الذين ساهموا في التعرف على هذا الآخر العثماني ونقل صورته الحضارية إلى المغرب الأقصى.

فالتفرقة السياسية لم تعرقل الاتصال المغربي العثماني نظرا لاعتياد العالم الإسلامي على درجة من المعيشة ونوعا من الحياة ولونا من التفكير تحتم على أفراده الاتصال والإتجار والتبادل الفكري والأدبي.

1- السفارات الدبلوماسية:

إن الصراع القوي حول حوض البحر الأبيض المتوسط جعل الحاجة إلى ربط علاقات دبلوماسية بين المغرب والدولة العثمانية تصبح ضرورية، ولعل أهم السفارات الدبلوماسية تلك التي قام بها علي التمجروتي سنة 1589 والتي سماها ب " النفحة المسكية في السفارة التركية"، وقد تزامنت هذه السفارة مع انعطاف الدولة السعدية باتجاه النمو والقوة كدولة ذات وزن إقليمي، سياسيا وعسكريا بمنطقة شمال إفريقيا[234].

وتشكل هذه الرحلة وثيقة هامة تؤرخ لجوانب عدة من العلاقات المغربية التركية، فهو يصف ما شاهده أو سمع به في المناطق التي كانت تحت أيدي الأتراك، بل يصف بلاد الترك نفسها، وهو من خلال ذلك يحاول أن يقدم الخطاب الرسمي للدولة السعدية اي أن السعديين أحق بالخلافة من المماليك الأتراك، وهو يصف من خلال ذلك أيضا سفره البحري الطويل وأعمال القرصنة وكذا وضعية الثغور المحتلة، ولم يهمل الناحية العلمية فذكر بمختلف العلاقات التي كانت قائمة بين المغاربة وعلماء المشرق الإسلامي.

وهكذا تزودنا رحلة التمجروتي عن جوانب مهمة من الحضارة العثمانية في الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية والعمرانية...

[234]– حسن إبراهيم شحاتة، أطوار العلاقات المغربية العثمانية، الإسكندرية، 1981، ص، 312.

فمن الناحية السياسية يتحدث التمجروتي عن ملامح نظام الحكم العثماني، السلطان وعلاقته برعيته، مؤسسة الصدر الأعظم، مجالس الديوان وحاشية القصر، كما يطنب في الحديث عن بنية مكونات وأحوال المجتمع العثماني وما يعرفه من تعايش الأجناس والأقليات، ويذكر كذلك الحياة الدينية بالدولة العثمانية وقيمة العلم فيها ومكانته بين أهلها. كما يهتم بمعالم الحضارة والعمران بالمدن العثمانية التي جال فيها من منازل مساجد وقصور[235].

عموما لقد شكلت السفارات المغربية إلى الإمبراطورية العثمانية القناة الأبرز في دعم التواصل السياسي والحضاري بين الدولتين ورافدا أساسيا لهذا التلاقح الحضاري...

2- قوافل الحجيج:

لقد كان موسم الحج قبل كل شيء موسم ديني تشد إليه الرحال من كل حدب وصوب لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أنه كان موسم ثقافي إسلامي يجمع نخبة طيبة من العلماء، حيث كانت تعقد حلقات الوعظ والإرشاد والحديث وجلسات العلم والأدب يحضرها كل من يرغب في التفقه في دينه وكل من يريد الاستزادة ولقاء فطاحل العلماء...

كما كان المرء يتمكن في هذا الموسم من الحصول على أخبار الكثير من البلاد الإسلامية، ولهذا فإن الحجاج المغاربة عندما يعودون إلى بلادهم غالبا ما ينقلون ما شاهدوه من صور حضارية بالمشرق إلى بلادهم ومجتمعاتهم المحلية. وهذا ما يدعم التواصل الروحي والثقافي بين المغرب والدولة العثمانية...

وقد كان السعديون يهتمون بركب الحج المغربي ويوصون به ملوك الحرمين حيث كتب السلطان المنصور السعدي لأمير مكة حسن بن أبي نمة يوصيه بركب توجه إلى الحجاز[236].

وكان الحجاج غالبا ما يقتنون أثناء مرورهم ببلاد المشرق أشياء جديدة بالنسبة لهم مثل الملابس والأواني والمواد النفيسة[237].

3- البعثات العلمية:

لقد شكل المشرق العربي في العصر العثماني بالنسبة للمغاربة قبلتهم الثقافية والعلمية التي إليها يحجون ليدرسوا في المراكز العلمية المنتشرة هناك بمصر والحجاز. والمتتبع لسلسلة علماء المغاربة التي ترد

235– مصطفى الغاشي، صورة مغربية للإمبراطورية العثمانية خلال القرن 16، نموذج التمجروتي، التاريخ العربي، عدد 6، ربيع 1988، صص 205– 223.

236– محمد المنوني، من حديث الركب المغربي، معهد مولاي الحسن، مطبعة المخزن، تطوان 1953، ص،36.

237– روجي لوتونو، فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986، الجزء 2، ص، 719.

تراجمهم في كتب التراجم الخاصة بالعصر العثماني الذين حلوا بالمشرق يتضح العطاء العلمي الذي قدموه هؤلاء للحياة الثقافية في مختلف المجالات من مجالات التدريس والإفتاء[238].

وقد كان للمغاربة رواقهم بالجامع الأزهر الذي يعد من أقدم الأروقة وأكثرها نشاطا كما كان أكثرها ثراء نظرا لكثرة الأوقاف التي كان ريعها عليه من جانب التجار المغاربة المقيمين بمصر، وقد كثر إنتاج هؤلاء وتنوع وشمل جميع الفنون والعلوم، ولم يكن نشاط هؤلاء المغاربة يقتصر فقط على مصر بل تعداه إلى الحجاز والشام حيث يعلمون وينشرون ثقافة العروبة والإسلام ويقومون بدور رسل الثقافة والتعليم[239].

4- التجار:

لقد كان من السمات الأساسية للحكم العثماني عدم فرض أية قيود على حركة السكان وممارسة نشاطاتهم الاقتصادية المختلفة، وبدأت تبرز العديد من الأسر التجارية المغربية على الساحة الإقتصادية بالمشرق.

وقد اشتغل المغاربة بالتجارة في جميع أنواع السلع التي تشكل عصب الاقتصاد في ذلك العصر، كما ازدهرت التجارة الموسمية المرتبطة بفترة الحج، حيث كان التجار وبعض الحجاج يحملون معهم البضائع والسلع المغربية التي يكون عليها إقبال في البلاد التي يمرون بها ويجلبون في إيابهم السلع المتنوعة التي تزخر بها أسواق الشرق...

وكان التجار يستغلون فرصة خروج ركب الحاج المغربي ليجهزوا جمالهم ودوابهم وليرفقوا هذا الركب في الطريق[240].

مظاهر التأثير الحضاري العثماني على بلاد المغرب الأقصى.

بلغ العثمانيون أوج مجدهم السياسي خلال القرن السادس عشر، وقد تطورت بذلك مظاهر حضاراتهم، وكانت القسطنطينية من أهم عواصم العالم مجدا وحضارة، وعندما زار أحمد المنصور الجزائر العثمانية كلاجئ سياسي زمن حكم ابن أخيه محمد المتوكل تعرف على الكثير من نواحي الإدارة والحضارة عند الأتراك، وسعى بعد توليه الحكم إلى إدخال عدد كبير منها إلى المغرب.

1- التأثيرات السياسية:

اقتبس أحمد المنصور السعدي التنظيمات السياسية والإدارية من العثمانيين. وقد قسم بلاده إلى إيالات كما في الدولة العثمانية، وعين على رأس كل منها والي إيالة يلقب بباشا، وهذا النظام مطابق للنظام الملكي العثماني، غير أن أهم تجديد سياسي أدخله أحمد المنصور الذهبي هو إحداث مجلس استشاري له تنظيمات

---

[238]– عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دور المغاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث، المجلة التاريخية المغربية، عدد 10-11، يناير 1978، تونس، ص،65.

[239]– نفسه، ص،66.

[240]– حسن الصادقي، الوجود المغربي في المشرق من خلال تراجم أعلام مكناس في مصادر مشرقية، أعمال ندوة الحاضرة الإسماعيلية، كلية الآداب مكناس 1988، ص، 219.

معينة واختصاصات محددة، سماه الديوان اقتباسا من مجلس الديوان العثماني، وإذا كانت المهمة الأساسية للديوان العثماني تتمثل في مراقبة نشاط الباشا وتزويد الباب العالي بكل المعلومات الضرورية عن سير الأمور في الإيالات، فإن اختصاصات الديوان السعدي لا تختلف عن ذلك كثيرا[241].

وذهب السعديون في الاقتباس عن الأنظمة التركية إلى درجة أنهم جردوا كالأتراك القضاة من كثير من اختصاصاتهم وحولوها إلى العمال والباشوات والقواد أي إلى ولاة الأقاليم والمدن والمراكز القروية.

ومن التقاليد الرسمية التي اقتبسها سلاطين الدولة السعدية عن الامبراطورية العثمانية، وفي إطار علاقة السلطان بأفراد مجتمعه أو مع الدول الأجنبية نجد أنه عندما يريد أن يرسل أية رسالة أو يختم وثيقة يضع توقيعه وعلامة مميزة وهي عبارة عن خطوط معقدة ذات شكل زخرفي تسمى الطغراء مقتبسة عن الأتراك وذلك منعا للتزوير ولإضفاء الشرعية عن الوثائق الرسمية[242].وهذه العلامة لم يستعملها سلاطين الدولة المغربية من قبل، ونجد هذه العلامة في تركيا حيث كانت تختم الأوراق الرسمية بطغراء السلطان وذلك في مجالس الديوان[243]، الذي كان يعقد تحت إشراف الصدر الأعظم ويحضره أعضاء آخرون مثل رئيس الكتاب ومساعدوه.

كما تتجلى التأثيرات السياسية العثمانية في طريقة الموكب السلطاني الذي ينظم سواء أثناء خروج أحمد المنصور السعدي في العيدين للمصلى أو إلى حركة، بحيث يجعل من العجم مرافقوه أثناء تجوالاته وخلال تنقلاته وفي حفلاته والمواسم والاستقبالات إذ كانت تسبقه فرقة البياك والسلاق، وهو يسير راكبا تظلله مظلة يحملها إثنان من الحرس الخاص. و تذكر المصادر أن عبد الملك أول من استعمل المظلة ولها دلالة خاصة إذ ترمز إلى السيادة، ويظهر أن ذلك منقول عن الأتراك[244]، وخلف السلطان تقرع الطبول والمزامير التي يسمع صوتها من بعيد، وتم اقتباس نوع جديد من المزامير تسمى الطرنبطار يتولى النفخ فيها قوم من العجم[245].

2- التأثيرات العسكرية:

لقد أدى انضمام العنصر التركي إلى الجيش المغربي في القرن 16 إلى الزيادة في تثبيت ركائز الدولة الحديثة وتقوية كيانها أمام الأطماع الأجنبية خاصة المسيحية المتمثلة في كل من إسبانيا والبرتغال، حيث أسهم الأتراك في تحرير الثغور بوضعهم للخطط العسكرية وإمداد السعديين بالآلات الحربية والمدافع،

241– إبراهيم حركات، السياسو والمجتمع في العصر السعدي، الطبعة 1، دار الرشاد الحديثة، الدارالبيضاء، 1987، ص 230.

242 – Jean Brignon et autres , Histoire du Maroc,Hatier,Casablanca 1967, p 212.

243– علي التمجروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، تحقيق حسن السائح، الرباط 1991، ص 104.

244– ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، الطبعة 3، دار المسير، بيروت 1993، ص 328.

245– عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في ذكر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، الرباط 1972، ص 203.

مما أدى إلى جلاء البرتغال عن قاعدتي أسفي وأزمور، هذا مع الإشارة إلى دور العنصر التركي في معركة واد المخازن التي جرت بين المغاربة والبرتغال سنة 1578، حيث تذهب بعض المراجع التركية أن الحرب كانت تركية برتغالية، إذ يقول عزيز سامح التير: " وأثناء عودتهم تصدى لهم الرايس سنان وأغرق قسما من سفنهم في البحر، فأسر منهم خمسمائة شخص، وبعد انتهاء الصدام صمم على إخراج سفينتين وتمكن من سحبهما معه"[246].

وعلى إثر هذا الانتصار بعث المنصور السعدي إلى السلطان العثماني سفيرا يعلن تبعيته له، وقد زود السلطان العثماني سفير أحمد المنصور بفرمان سلطاني يخول لأحمد المنصور الحكم في عائلته جيل بعد جيل[247].

وبعد إعلان أحمد المنصور تبعيته إلى السلطان العثماني سارع إلى بناء جيشه على الطريقة العثمانية، وفي هذا يقول عبد العزيز الفشتالي:" فقد اصطفى من العجم موالي أنبتتهم نعمته وربتهم تربية، فنجبت طوائف عديدة ليس منهم فتى أضخم حالا وأعظم شأنا وجلالا"[248].

أي أن المنصور قد عمد إلى تربية الجيش على غرار ما كان عند الأتراك وكون منهم فرق عسكرية نظامية اتخذها من الأتراك والأندلسيين والعلوج والسودانيين، وكان هؤلاء يلقبون بألقاب غريبة مستمدة من جيش الانكشارية العثمانية:

- **الألقاب العسكرية:** من بين الألقاب العسكرية التركية التي استعملت داخل الجيش المغربي نجد:

البياك: يقفون لحراسة القبة والفسطاط الملكيين.

السلاق: يقفون خلف البياك.

الشنسرية:يتولون مناولة طعام السلطان والغسل والمسح.

القبجية: حراس الأبواب وأسوار القصر.

الشواش:طائفة تتولى ضبط الجيوش عند المصاف وتبليغ التعليمات الملكية.

البكباشات: جنود أهل الخيل.

قائد النار: صاحب السلاح الناري[249].

- **المصطلحات العسكرية**: استخدم السعديون بعض المصطلحات العسكرية التركية ومنها:

الأدباشي: وتعني ضابط، وبمراكش يوجد حي بإسم درب ضباشي وهو تحريف للأصل التركي.

بلكباشي: قبطان.

---

[246]– عزيز سامح التير، الأتراك العثمانيون بإفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عمر، بيروت 1989، ص 257.

[247]– نفسه، ص 262.

[248]– عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في ذكر موالينا الشرفا، مصدر سابق، ص 45.

[249]– نفسه، ص 202.

كاهية(عقيد): وبالمغرب عائلة تحمل إسم بلكاهية.

الشاوش: هو من ينفذ أوامر السلطان ويستعمل اللفظ الآن بمعنى عون.

طبجي: ضابط مدفعية.

باشا: أطلق بالمغرب على والي المدينة وأحينا على والي مركز قروي كبير، وأطلق كذلك هذا اللقب على قادة عسكريين في المغرب السعدي، كجودر باشا ومحمود باشا قائدي حملة السودان الغربي.

وفي المصادر المغربية نجد كلمة المحلة[250] وهي مقتبسة عن الأتراك تعني عندهم الحملة أو الغزوة، ومعناه عند المغاربة الحامية أو المعسكر أو فريق من الجيش، إضافة إلى مصطلح الفابورات ويستعمل هذا اللقب في الميدان البحري ويطلق على السفن أو البواخر وقبطانها ومعناه رايس البحر[251]، وكانت السفن تحمل أوصافا بحسب أغراضها منها ما هو عربي وما هو تركي، كالشواني والفركاطة والشطية والبطاشية والغلاطة[252].

- **الزي العسكري**: لإبراز مظاهر القوة والعظمة عمد عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور إلى الأخذ عن الأتراك الزي العسكري، ويتكون أساسا من كسوة المحصور التركية المزخرفة ذات السروال الفضفاض والصدرية المزركشة[253].

وكان هذا الزي الذي اقتبسه أحمد المنصور يبعث على القوة والرعب وقد أصبح شائعا بالمغرب منذ ذلك العصر، ذلك أن الحرس الملكي الحالي يستعمل نفس الزي الذي عرفه عهد المنصور.

- **الأسلحة**: لتحصين البلاد ضد الهجمات الأجنبية وتقوية هياكلها، عمل سلاطين الدولة السعدية إلى إدخال الأسلحة النارية نقلا عن الأتراك، وتمثلت في المدافع التي كان أفرادها من العجم على اعتبار أنهم أكثر دراية بهذه الأسلحة، مما جعل المعتصم يقربهم منه ويزيدهم في الأعطيات[254]. ولكن فيما بعد أصبح أصحاب السلاح الناري إضافة إلى العنصر التركي يتألفون من سكان القبائل المحلية كقبائل سوس وقبائل شراكة[255].

---

[250]– مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تحقيق عبد الرحيم بن حادة، الطبعة 1، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش 1994، ص 51.

[251]– عبد الحق المريني، الجيش المغربي عبر التاريخ، الطبعة 5، دار النشر المعرفة، الرباط 1968، ص 36.

[252]– عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في ذكر موالينا الشرفا، مصدر سابق، ص 244.

[253]– محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين،الجزء 1، دار المغرب للتأليف، الرباط 1976، ص 53.

[254]– عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في ذكر موالينا الشرفا، مصدر سابق، ص45.

[255]– نفسه، ص 203.

واستعمل السلاح الناري في الفتوحات المغربية خاصة باتجاه السودان الغربي، إذ يقول الفشتالي:" وأرعبت رعود النار من كل جهة فأرسلوا عليها شآبيب الرصاص، وأطبق عليها ليل ديجوجي"[256].

- **بناء الأبراج**: ومن التقاليد التركية التي تبناها السعديون الاهتمام بتشييد الأبراج لاستخدام المدافع وتحصين البلاد وتقوية قواعدها العسكرية، ومن بين الأبراج التي تأثرت بالهندسة التركية نذكر برج النور الذي بني على شكل نجمة رباعية وله نظير بالعرائش بني سنة 1588 هذا الحصن يحتوي على أبراج في أركانه وهي ذات زوايا حادة من الخارج تتجه في الداخل نحو الاستدارة[257].

التأثيرات الاجتماعية:

يلاحظ المتتبع لتاريخ المغرب أن كل العناصر التي سكنت البلاد دخلت بعادات وتقاليد منها المستحسن ومنها المستهجن، فالأتراك لم يقتصر تأثيرهم على المجتمع المغربي من الناحية العسكرية فقط بل تعداه إلى الناحية الاجتماعية، حيث اقتبس عنهم المغاربة عدد من العادات والتقاليد والاحتفالات الشعبية.

1- المجتمع والتقاليد:

أ- **اقتباس الشموع المزخرفة**: من بين كل المؤثرات الرسمية والشعبية التركية التي انتقلت إلى المغرب بطريقة رسمية نجد الاحتفال بالمولد النبوي بالشموع المزخرفة[258].

ويصف الفشتالي هذا الاحتفال بقوله:" حتى إذا كان ليلة عيد المولد النبوي الكريم .... وحضر وقت زفاف العذارى من رياض الشموع إلى الأبواب العلية الشريفة وحضرت الآلة الملوكية... وانتظم عالم من النظارة بحافي الطريق وبرزت جذوع الشموع كالعذارى وارتفعت أصوات الآلة وقرعت الطبول، وضج الناس بالتهليل والتكبير والصلاة على النبي الكريم..."[259].

وإلى يومنا هذا لازالت مدينة سلا محتفظة بهذا الامتياز، وتساهم في عرض الشموع عائلة سيدي عبد الله بن حسون وترتدي نفس الزي العسكري الذي كان يرتديه ضباط المدفعية في العهد السعدي.

ب- الزرابي والزي التركيين:

تتضارب المصادر حول كيفية انتقال صناعة الزرابي إلى المغرب، فبعضها تشير على أن ذلك تم والدة منصور مسعودة الوسكيتية، والبعض الآخر تشير على أن والدة عبد الملك سحبانة الرحبانية هي التي نقلت هذا الفن إلى المغرب، والراجح أن والدة المنصور هي التي أدخلت هذه الصناعة بعد عودتها من القسطنطينية إلى المغرب وبدأ صنعها على يد النساء[260].

---

[256]– نفسه، ص 76.

[257]– إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ،الجزء 2، الطبعة 1، دار الرشاد الحديثة، الدارالبيضاء، ص 205.

[258]– نفسه، ص 305.

[259]– عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في ذكر موالينا الشرفا، مصدر سابق، ص237.

[260]– إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ،الجزء 2، مرجع سابق، ص 272.

إضافة إلى افتراش الدور المغربية بالزرابي التركية تتحدث المصادر عن تزيين البيوت بالحائطيات المطرزة بالذهب والحرير، ويبدو أن المنصور قد زين جدران قصر البديع بهذه الحائطيات المطرزة[261].

ولم يقتصر التأثير التركي على صنع الزرابي والحائطيات بل تعداه إلى انتقال الزي التركي سواء المدني أو العسكري الذي دخل مع عبد الله المعتصم عندما عاد من القسطنطينية ، ويتمثل هذا الزي في كسوة الجبدور الذي يلبس حاليا من طرف النساء والرجال، يختلف شيئا ما في طريقة الخياطة والتطريز، وقد دخلت كسوة الجبدور ضمن الزي العسكري السعدي بحيث لبسه البحارة والجنود[262].

ثم نجد الطربوش ذو اللون الأحمر الداكن، إذ كان الضباط في تركيا يضعونه على رؤوسهم مع الزي العسكري، وقد دخل إلى المغرب عن طريق أتراك الجزائر وعن طريق المغاربة الذين ذهبوا إلى إسطانبول. أكثر من ذلك نجد الزي الذي يرتديه الأطفال عند ختانهم، والذي يتكون من قميصين داخلي والآخر خارجي، غير مغربي الأصل انتقل عن طريق المغاربة الذين حلوا بالأستانة[263].

ج- **تقديم الهدايا للموظفين**: ومن العادات التركية المستهجنة التي تركت آثارها العميق في المجتمع المغربي إلى يومنا هذا، تقديم الهدايا للموظفين وذلك لتسهيل خدمات العموم بطريقة أسرع، أو عن طريق تقديم ما يسمى عندهم بالبقشيش[264]، وتعتبر رشوة تختلف فقط في المصطلح، ويعطى البقشيش أو الحلوان في كل خطوة وعند قضاء أي حاجة، وقد ألف موظفو الإدارة هذه العادة السيئة وذلك باستغلالهم لنفوذهم، إذ كانوا لا يخفون جشعهم ولا تورعهم عن مطالبة القناصل والتجار وبتقديم الهدايا لهم.

د- **استعمال الألفاظ التركية**: دخلت عدد من الكلمات التركية إلى اللهجة المغربية بسبب عدة عوامل: مجاورة المغرب لأتراك الجزائر طيلة عدة قرون، كما أن الأمتين المغربية والعثمانية كانتا في نفس الدائرة الحضارية، وأيضا بسبب الهجرات المتتابعة بين أراضي الطرفين والعلاقات الدبلوماسية والاقتصادية.

وقد بلغ عدد الكلمات التركية التي أدخلت إلى اللهجة المغربية ما بين 180 إلى 200 كلمة، وفي بعض المناطق تستعمل الكلمات التركية أكثر من أي كلمات أخرى وذلك في مختلف الميادين: الموسيقى، السكن،

261– الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، الجزء 5، ص 103.

262– محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين،الجزء 1، مرجع سابق، ص 53.

263– عزيز سامح التير، الأتراك العثمانيون بإفريقيا الشمالية، مرجع سابق، ص 261.

264– – مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تحقيق عبد الرحيم بن حادة، مصدر سابق، ص 51.

الأمور العسكرية. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: الخوانجي(الأخ)، باشا، برانية(غريبة)، بوغاز، خنجر، طباشير، سبسي[265]....

ه- **وسائل الترفيه:** لم يقتصر التأثير التركي في أوساط المجتمع المغربي على الاحتفالات والعادات الاجتماعية، بل تعداه إلى انتقال بعض وسائل الترفيه والتي لم تكن معروفة من قبل، بحيث أقبل عليها الناس بكثرة ولازالت مستمرة إلى يومنا هذا:

- **أولا اقتباس الغليون(السبسي):**

من التقاليد التي تركت أثرها في الحياة الاجتماعية إلى اليوم نجد انتقال الغليون الذي يدعى بالسبسي، وقد اعتبر السبسي أو الغليون الوسيلة الوحيدة لتدخين مادة التبغ أو الحشيش بالمغرب[266]، هذه العشبة تذكر المصادر أنها دخلت عن طريق السودان الغربي وتكاثرت زراعتها بالمغرب.

- **ثانيا: اقتباس المقاهي البلدية:**

تجلى أثر التدخل العثماني في ظهور المقاهي البلدية وعن الطريقة التركية أول مرة بالمغرب، التي اعتبرت متنفسا ترفيهيا تلتقي فيه طبقات الشعب.

وقد فتحت هذه المقاهي أبوابها لأول مرة بالرباط في أوائل القرن الحادي عشر الهجري على يد أندلسيين وربما بالأسبقية على يد بعض الأتراك، وبهذه المقاهي يلعب القمار ويحمل مالكها لفظ القهواجي وهي لفظة تركية الأصل[267]، وهذا اللفظ مازال متداولا في بعض المقاهي إلى يومنا هذا.

مظاهر التأثير العمراني:

لم يقف التأثير العثماني عند الناحية الاجتماعية، فالفن المعماري قد تأثر في العهد السعدي بمؤثرات موريسكية وأخرى عثمانية، فأين تتجلى مظاهر التأثير التركي؟

1- **الأضرحة:** من بين أهم الأضرحة التي شملها التأثير التركي نجد ضريح السعديين الذي يقع داخل قصبة مراكش، وهو من أجمل الآثار التاريخية بالبلاد، ويمثل هذا الضريح من حيث هندسته وفنه تطويرا للفن التركي، ويتجلى هذا التأثير في الأعمدة الرخامية المتقاربة كأنها باقة، وكذا في الزليج المموه[268].

---

265 – Matin Akar, Les mots turcs dans la dialecte arabe du Maroc in « le Maghreb à l'époque Ottomane ».pub.FLSH Rabat, série Colloques et Séminaires n° 41, Najah El Jadida, Casablanca 1995, p 36.

266– إبراهيم حركات، السياسة والمجتمع في العصر السعدي، الطبعة 1، دار الرشاد الحديثة، الدارالبيضاء 1987، ص 265.

267– نفسه، ص 313.

268– نفسه، ص 313.

2- **المساجد والجوامع**: برزت في عدد من المساجد والجوامع في المغرب مميزات الفن الديني التركي المتمثل في القباب المثمنة الأضلاع، التي تغطي المصليات وتحيط بها على الجهات الأربع أروقة سقوفها على شكل قباب صغيرة، وتوجد نماذج من هذه المنارات المثمنة الأضلاع في أصيلا ووزان والشاون والرباط(جامع الشرفاء)[269].

3- **الأبراج**: تقليدا للعثمانيين اهتم السعديون بتشييد الأبراج لاستخدام المدافع، ومن جملة هذه الحصون، يوجد حصن تازة الذي بناه أحمد المنصور السعدي وذلك استجابة للحوافز العسكرية القاضية بتزويد ممر تازة الواصل بين الشرق والغرب بالأجهزة الدفاعية، وتطل من هذا الحصن على المدينة ثلاثة عشر غرفة للرماية، كما أضاف السعديون أجهزة قوية إلى المعاقل والحصون البرتغالية المحررة كأسفي وأزمور والجديدة[270].

خـــــــــاتـــمة:

مما لاشك فيه أن التدخل العثماني بشمال إفريقيا قد ساهم مساهمة فعالة في انتقال مؤثرات الحضارة العثمانية إلى المغرب، وقد كانت لهذه المعطيات الحضارية أثر على مجرى الحياة اليومية والعادات والتقاليد بالمغرب.

ومما ساهم في هذا التبادل الحضاري انتماء البلدين إلى منظومة الدائرة الإسلامية المتمثلة في المذهب السني وكذلك وحدة المصير والهدف.

وقد انتقلت المؤثرات الحضارية العثمانية إلى المغرب نتيجة عامل الجوار والاحتكاك المباشر بين الطرفين وكذلك نتيجة لتوطيد العلاقات الديبلوماسية والاقتصادية.

ونظرا لأن الامبراطورية العثمانية عرفت أزهى فتراتها في القرن 16م، فلم يجد المغاربة أدنى حرج في الأخذ ببعض معطيات الحضارة التركية لمواكبة متطلبات العصر، لكونهم كانوا في موقع ضعف على جميع المستويات السياسية، الاقتصادية والاجتماعية، لهذا نجد غياب شبه تام لتأثيرات الحضارة المغربية في نظيرتها العثمانية.

---

[269]– نفسه، ص 147.

[270]– عبد الحق المريني، الجيش المغربي عبر التاريخ، مرجع سابق، ص44.

صفحات من التاريخ القديم







النقوش الصخرية بدرعة العليا : الواقع ورح الاعتبار

امبارك أيت عمر
طالب باحث في سلك الدكتوراه
كلية الآداب ظهر المهراز- فاس

تعتبر النقوش الصخرية من أهم الوثائق الأثرية التي اعتمدها الباحثون أثناء محاولاتهم كتابة تاريخ الحضارة المغربية القديمة ، لأن كل ما نقشه الإنسان القديم على اللوحات الصخرية ، ليس إلا انعكاسا لمحيطه البيئي و واقعه المعيشي و فكره . و هكذا ينطلق الباحثون من هذه النقوش الصخرية مستعينين بباقي المعطيات التاريخية ، في محاولاتهم تأويل دلالاتها متوخين من ذلك إعادة تشكيل مختلف الظروف (البيئية و الحضارية) التي أنتجتها [271] .

وتعود أولى الأبحاث التي اهتمت بدراسة النقوش الصخرية المغربية إلى الفترة الاستعمارية ، شأنها في ذلك شأن الأبحاث التي توخت دراسة باقي نقوش شمال إفريقيا و الصحراء في الجنوب . و قد

[271] .Malhomme(J), Les armes gravées du grand atlas , in congrès préhistoriques de France XIV session , 1953 p 395.

طغى على هذه الأبحاث الأولية في البداية وصف المواقع و إعطاء بعض الإحصائيات لنقوشها ، و أنجز الكثير من هذه الأبحاث على يد هواة عسكريين أو باحثين غير متخصصين.[272]

1- تعريف النقوش الصخرية و أهم مواقعها بالمغرب .

1-2- تعريف النقوش الصخرية و تقنياته :

يطلق مصطلح النقوش الصخرية على صور الإنسان و الحيوانات و الأدوات و الرموز و الكتابات ... التي نقشها الإنسان القديم على صخور الجبال و الهضاب و غيرها . و غير الرسوم الصخرية ، و الفرق بينهما أن هذه الأخيرة يستعمل في إنجاز لوحاتها أصباغ طبيعية ، بينما تستعمل الأدوات الحادة للنقش على الصخر.[273]

نميز في الفن الصخري بين نوعين : الرسم الصخري و النقش الصخري ، فبالنسبة للنوع الأول يتم إنجاز الصور فيه باستعمال ألوان مختلفة على الصخر خاصة على جدران المغارات و المخابئ التي تكون فيها أكثر أمانا من الضياع لأن رسمها في الهواء الطلق سيجعل أصباغها تنمحي على مر الزمان ، و هذه الرسوم قليلة في المغرب[274]. و بالنسبة لإقليم طاطا يوجد موقع واحد معروف إلى حد الآن و هو خاوي الكتبان [275].إلا أنها جد منتشرة في الصحراء الجزائرية (تاسيلي ناجر tasili najr مثلا) . وفي أوربا فهذه الرسوم قديمة جدا بالمقارنة مع مثيلاتها بشمال إفريقيا . فالفن الجداري الكاتنبري الفرنسي مثلا مؤرخ بحوالي 40000 سنة . و في هذا الصدد يقول كاميل أرامبو : " و نجد في المناطق الجنوبية من اسبانيا هذا النوع من الرسوم و النقوش الصخرية ، لكنها نمت بشكل خاص في المناطق التلية و في مناطق الصحراء الكبرى عامة ، و على الرغم من أنها لم تبلغ درجة الكمال التي بلغتها في أوربا فإنها تابعت في تطورها المراحل ذاتها متنقلة تدريجيا من الواقعية البدائية إلى البساطة المتزايدة في الخطوط " [276]،

---

[272] -.Maury(R), Une route préhistorique à travers le Sahara occidental , in B.I.F.A.N.1947.p 341.

[273] -Malhomme(J) ,Corpus des gravures rupestres du grand atlas , P.S.A.M.n13 , Rabat , 1989 , l'homme à l'inscription des AZIBES NIKKIS yagour (Notes et Documents) in B.A.M. Tome IV , 1960 , p 417.

274 _ هذه الرسوم حسب سوفاي موجودة في مغارة سنار (شمال المغرب) و كهف البارود (سيدي سليمان) و إفران بالاطلس المتوسط و تولكين بالاطلس الكبير دون أن يذكر خاوي الكتبان في درعة الاوسط.

275 _.La Fanachère(CR) , Recherche de préhistoire dans la région Bani-Draa , BSPM n 7-8 .casa .1954 . p 132

[276]-كميل أرامبو ، نشأة البشرية ، ترجمة خليل الجر ، سلسلة ماذا أعرف ؟ بدون تاريخ النشر و مكانه ص 31.

أما النقش الصخري فهو بكل بساطة الفن الذي أنجزت فيه الصورة على الصخر باستعمال أداة حادة [277] , و هذه النقوش الصخرية توجد غالبا في الهواء الطلق لكونها أكثر صمودا أمام تغيرات المناخ ، و فيما يخص نشأة النقش الصخري – كما أشرنا في الفصل الأول- فإن معظم الباحثين يرجعونها إلى العصر الحجري الحديث فقط في شمال إفريقيا رغم أن البعض يرى أن هذه النشأة تعود إلى العصر الحجري القديم الأعلى .

أما تقنيات النقش و طرقه فهي كثيرة ، و المعروف منها في المغرب هي :

أ – الحز l'incision :

وهي عملية يتم فيه شق الخطوط التي تشكل الصورة على شكل " T ": أو " V ، وذلك باستعمال الإزميل Burin و هذه التقنية قديمة وهي قليلة في منطقة درعة حيث إن النقوش الجميلة ذات الأسلوب الطبيعي naturaliste الذي يتميز بخطوط واضحة دقيقة و عميقة على شكلV أو"T " تكون نادرة " [278]

ب - الصقل:le polissage :

و هو جعل الشكل أملسا بعد تحديد أبعاده بخطوط على الصخر ، وهكذا يظهر الشكل بارزا أو غائرا على الصخر بعد أن يتم صقل أبعاد هذا الشكل و قد يكون الخط عميقا أو خفيف العمق . و يستعمل في هذه التقنية أدوت حجرية أو معدنية و أحيانا عظمية أو عيدان صلبة[279].

ج - النقر : le piquetage :

يرسم الشكل المرغوب نقشه بخطوط دقيقة و بعد ذلك يأتي النقر على شكل نقط منتظمة و متفرقة ، خفيفة أو عميقة. و يستعمل في النقر: الوتد le piquet أو ذو الوجهين Biface . وقد يكون النقر أحيانا ممزوجا بالصقل حيث يكون الرسم الأول خفيفا أو خشنا . وفي الحالة الأخيرة فهو يشوه الأصل فلا نعرف هل هو صقل أم نقر . غير أن النقر لا يستعمل فقط في إبراز حدود الإشكال المنقوشة بل أيضا في حالة نقش الحيوانات يستعمل لإبراز ريشها و كساءها les robes [280].

[277] -.Searight (S) « gravures rupestres de haut atlas »ministre du tourisme.,casa .1992.p 14.

[278] -.du puigaudeau(O) et S(M) , nouvelles gravures rupestres de l'oued Tamanart(sud marocain) , BIFAN.T.XXVII.S.n 1-2.1965.p282

[279]-د سليمان أيوب ، دراسات في تاريخ المغرب القديم من عصر ما قبل التاريخ حتى العصر الروماني ، الدار البيضاء ، 1983 ، ص 68

[280]-المرجع نفسه،ص 68

ج- الطرق martelage ou percussion:

و ذلك باستعمال إزميل أو قدوم لطرق خطوط غائرة الشكل [281] ، وقد يمزج الطرق الخفيف بالحز على شكل" V" .

د – الخربشة : obtenus au la guage :

يتم رسم الشكل على اللوحة الصخرية ثم يتم إظهار هذا الشكل بخربشة حوافه بآلة حادة ثم يزال ما حوله [282] . و هذه التقنية تسمى أيضا بالحك .

هذه إذن هي أهم تقنيات النقش ، إلا أن النوع الأكثر انتشارا في منطقة درعة هو الصقل و النقر .و عن هذا يقول أندري سيمونو :" اللوحات هي في الغالب مصقولة جنوبا و منقورة شماله" [283] .

2-1 – خريطة لمواقع النقوش الصخرية بالمغرب .

يمكن الإشارة إلى هاته المواقع في الخريطة الأتية :

[281]-سليمان أيوب ، مرجع سابق ص 69 ,

[282]-المرجع نفسه

[283]- Simoneau(A) , les chasseurs-pasteurs de draà-moyen et les problèmes de la néolithisation dans le sud marocain , R, G,M ,n 16 , 1969 . p 99

Tange
Oujda
Fes
Rabat
Casablanca
OCEAN ATLANTIQUE
Figuig
Errachidia
Marrakech
Ouarzazate
Agadir
Tata
ALGERIE
Laâyoune
Smara
Dakhla
MAURITANIE
MALI
Aousserd
0 200 km

أماكن انتشار النقوش الصخرية بالمغرب

المصدر : المركز الوطني للنقوش الصخرية .

3-1-أهم مواقع نقوش منطقة درعة العليا

❖ **مواقع نقوش تامانارت .Tamanart**

تقع محطة تامانارت في الجهة الغربية لإقليم طاطا ، وهي تدخل ضمن النفوذ الترابي للجماعة القروية لتامانارت ، و تمر منها الطريق الرئيسية المعبدة رقم 12 المؤدية إلى طاطا و أقا .

و ما يميزها من الناحية الطبيعية هو طغيان المرتفعات الجبلية التي يخترقها وادي تامانارت الآتي من الاطلس الصغير ، و الذي يقسم تامانارت إلى شطرين . و على طول ضفافه قامت قرى المحطة منذ أقدم العصور إلى اليوم . و هذا الوادي هو الذي يحتضن أيضا مواقع النقوش الصخرية على ضفافه التي تحتلها سفوح جبل باني و التي وفرت للفنان صخورا جاهزة لتنفيذ أعماله الفنية على سطوحها ، بل نجد بعض هذه الصخور على شكل جدران جبلية تزينه النقوش مثل موقع إيغير ويلولنIghir Ouilloulen ، و عن هذه المحطة يقول أندري سيمونو : " إن البحث الآن في تامانارت جد متقدم بثمانية عشر محطة (موقع) مكتشفة إلى حدود ماي 1973 "[284] . و لكنه في إحصائه هذا أدرج ثلاثة مواقع سأدرجها أنا ضمن محطة إيشت – فم الحسنIcht , Fem Lhcen وهي : تيرشت Tercht، تدرومت Tadroumt، و تصفروين Tesfreouin.

و واد تامانارت يضم أيضا مواقع مهمة في مجراه الاعلى و بالأخص موقع يوكاس[285] ، و نظرا لشساعة حوض تامانارت سأركز فقط على المجال الذي تشمله نقوش جبال باني الاوسط .

---

[284] - Simoneau(A) , Documents rupestres du sud marocain , in B.C.S.P , v XII , 1975 .p 166.

[285] - Krug(L) , Notes sur Les gravures rupestres reconues dans la circonscription de Tafraout , , B.S.P.M.,1 – 2 semestre , 1939 .pp 21 – 22 .



تقع هذه المحطة في الجهة الجنوبية الغربية لإقليم طاطا ، و تدخل ضمن النفوذ الترابي للجماعة الحضرية لفم الحسن ، و تقطعها الطريق الرئيسية رقم 12 الرابطة بين سيدي إفني و الريصاني . و عبر هذه المحطة أيضا يمر واد تامانارت الذي ينتهي إلى واد درعة . و على ضفافه يوجد موقع تيرشت Tirecht و الذي لم تحدد كل من M . Sinones و O . dupuigaudeau موقعه الجغرافي بدقة إذ سمتاه جبل إيشت " la montagne d'Icht " في المقال الذي نشرتاه في سنة 1941[286]. في حين حددتاه بدقة في مقال 1953 حيث أوردتا ما يلي : " لابد أولا أن نصحح ، معتذرتان ، التحديدات الجغرافية الخاطئة في نقوشنا الصخرية ، تقع ليس على واد إيشت و لكن على ضفاف واد تامانارت و واد تاسيفت "[287] . و قد اعتمدت على المقالات الثلاث لهاتين الباحثتين لجمع نقوش هذا الموقع . أما بالنسبة للمواقع الاخرى فقد اعتمدت فيها على ما نشره أندري سيمونو و مقال للباحث هنري لوط .

❖ **مواقع نقوش أقا Akka**



---

[286] حددت الباحثتان موقع جبل إيشت ما بين الضفة اليمنى لواد إيشت و الضفة اليسرى لواد تامانارت على بعد 3 كلم تقريبا شمال قريتي إيشت و فم الحسن.

[287] - du Puigaudeau(O) et S(M) , Gravures rupestres de l'Oued Tamanart (sud marocain) , B.I.F.A.N. T XV , 3 , 1953 p 1261 .

تقع أقا ما بين تامانارت و فم الحسن في الجنوب الغربي و طاطا في الشمال الشرقي . و تدخل ضمن النفوذ الترابي لبلدية أقا و الجماعات القروية المحيطة بها : تيزونينTizounine ، أيت وابلي Ait Ouabli ، سيدي عبد الله بن امبارك ، و تقطعها الطريق الرئيسية رقم 12 في اتجاه طاطا .

و تنتشر في المحطة إلى جانب جبل باني نتوءات صخرية أخرى منتشرة شمال هذا الجبل و جنوبه ، و تتخللها سهول غرينية تخترقها أودية مهمة كواد أقا و واد أيت وابلي و التي تصب في واد درعة .

و بالنسبة للنقوش الصخرية ، فإن المحطة تضم مجموعة من المواقع ،ضمنها مواقع ثلاث كان سيمونو فيما مضى قد ضمها إلى أراضي فم الحسن ، وهي : أيت وابلي ، أسيف نتادكوست Ntadkoust و أسيف يومكات Youmkat[288]. إلا أن المواقع التي استاثرت باهتمام الباحثين هي الموجودة شمال باني أو ما يسمى بفايجة باني أقا . فقد خصص لها سيمونو في فهرسه المذكور آنفا 15 صورة مع التعليق خاصة موقع متكورين . و خصص خمس صور فقط لبعض المواقع الاخرى من هذه المحطة[289]. و تليها من حيث الاهمية أيضا المواقع الموجودة جنوب شرق أقا كمعاردة Maardaو أم لعلك - Oum Laalkو شمالها غرب المهداوي .

و استعنت في دراسة هذه المواقع على ما نشره أساسا أندري سيمونو و ألان رودريك إضافة إلى A . Ruhlman و R . La Fanechère . أما موقع تيزكي ريغن Tizngui – righane فقد عاينته لكن أندري سيمونو لم يشر إلا إلى صورة واحدة فقط تحت إسم تحوزات Tahouzat [290] ، وهي جزء من تيزكي ريغن .

❖ مواقع نقوش طـاطـا – فـم زكيد Tata – Fem Zguid



---

[288] - Simoneau(A) , Catalogue … , op .cit , p 40.
[289]- Ibid , pp 38 – 39.
[290]- Ibid , p 53.



تقع هذه المحطة في النفوذ الترابي التابع لدائرتي طاطا و فم زكيد باستثناء الجماعتين القرويتين لإسافن و تكموت التابعتان إقليميا لعمالة تزنيت . و هذه المحطة تقطعها أيضا الطريق الرئيسية رقم 12 ، و المحطة توجد في منخفض كبير تمر منه مجموعة من الاودية خاصة واد طاطا و واد المالح ، و التي تصب بدورها في واد درعة . و تنتشر داخلها جبال صغيرة كجبل الفكوسات ، إضافة إلى نتوءات جبلية أخرى .

أما النقوش الصخرية فكثير منها يوجد على سفوح هذه الجبال قرب الاودية غالبا [291] ، بالإضافة إلى سفوح جبل باني الرئيسية .

2- الأخطار الطبيعية و البشرية المهددة للنقوش الصخرية.

هناك عدد كبير من الأخطار التي تسبب الضرر للنقوش الصخرية وبالتالي تتسبب في خرابها و تآكلها التدريجي، ويمكن إجمال تلك الأخطار في الأمور التالية:

2-1 – الأضرار التي تسببها الطبيعة .

تواجه مواقع النقوش الصخرية بمنطقة درعة - و بصفة دائمة – مجموعة من أشكال التدهور الطبيعي و ذلك لأنها توجد معرضة للهواء الطلق ، و لتأثيرات التغيرات المناخية ، و يمكن أن نجمل أهم مظاهر هذا التدهور فيما يلي :

❖ **تغير درجات الحرارة :** يسود – اليوم – في مغرب ما قبل الصحراء و الصحراوي طقس جاف و قليل المطر ، كما أن المناخ يسجل فارقا كبيرا بين الحرارة الدنيا (الليل) و الحرارة العليا (النهار) ، و كل هذا يؤثر على ثبات الصخرة خصوصا إذا كانت ذات بنية سهلة التفتت (مثال :

291 - Valleverdu(R.V) , Nouvelles stations de gravures rupestres au sud Djbel Bani (anti atlas , Maroc) , B.S.P. de L'Ariège , T XXXVI , 1981 , pp 117 – 118.

الحجر الرملي) ، و هذه التغيرات تخلف انكسارات و شقوق تعتبر منفذا للمجاري المائية و التي تساهم في اختفاء الرسومات الصخرية بفعل تآكل القشرة السطحية للصخرة.[292]

- **انصهار الجليد** : يلاحظ هذا النوع من التدهور في الهضاب العليا للأطلس حيث تسجل التساقطات الثلجية الموسمية و التي تنصهر و تسبب تحولات مهمة في كتلة و مساحة الصخور. هذه التحولات تترجم بعد ذلك بسلسلة من التصدعات الدقيقة و التي (أي التصدعات) تكبر مع تكرار ظاهرة الانصهار .[293]
- **تقشر الصخور** : هو نتيجة تزاوج الظاهرتين أعلاه (الحرارة و انصهار الجليد) و التي تؤديان إلى تشكل شقوق عديدة على سطح الصخرة ، تزيدها بعض النباتات التي تتفتق على الصخور شساعة ، و يكون تأثيرها (النباتات) في الأجواء الرطبة (مثال : محطة تامنارت و معاردة ...) .
- **مجاري الماء** : تساهم المجاري المائية الدائمة أو المؤقتة الجريان في التدهور عن طريق التآكل البطيء و المستمر لسطح الصخور. و تسمح خطوط الرسوم الصخرية العريضة بمرور المياه السطحية و مع مرور الوقت ينتج عن ذلك توسع غير عادي لتلك الخطوط و بالتالي تكسر لسطح الدعامة الصخرية . لقد اختفت العديد من الصور الصخرية في موقع " فم زكيد" في الأطلس الصغير حيث تكثر المنابع الموسمية بين فترة انصهار الثلوج و الأمطار الأولى لفصل الخريف.
- **قوة الرياح** : يتجلى التأثير السلبي لهبوب الرياح على النقوش الصخرية في نقل حبات الرمل التي تهاجم السطوح المائلة للصخور و تحدث تآكل للقشرة الصخرية . كما أن تسرب حباب الرمل عبر شقوق الصخور يساهم في تفكيك صفيحات كبيرة من الصخور.
- **سقوط الأحجار** : يسجل هذا النوع من التدهور في المواقع الصخرية الواقعة على أجراف مرتفعة ، و هناك محطات عديدة تدخل ضمن هذا الصنف كأدرار متكورين بأقا ، و كذلك في أغلب المواقع الصخرية لواد تامنارت ، إن التآكل العام الذي تعرفه سلاسل الأطلس الصغير و باني تحت تأثير التغيرات المناخية و الأقدمية الجيولوجية تتحول مع مرور الزمن من جبال ذات مرتفعات إلى جبال مستوية بفعل تساقط أحجارها و التي تحمل معها أثناء تساقطها ألواح صخرية منقوشة. يعتبر تساقط الصخور نتيجة ثقلها و للدينامية التكتونية سببا في تفتت و تقطع

[292] Nami mustafa et Skounti ahmed , Patrimoine rupestre et développement durable , colloque international, développement durable en Maghreb , rabat , 27-29 Avril 2000.p 50
[293]Ibid .p 54.

الصخور المنقوشة بينما تحمي بعض الصخور الأخرى المنقوشة و الموجودة في أسفل الأجراف.

- **تآكل السطح** : و ذلك تحت تأثير العوامل المختلفة للحث و تؤدي في آخر المطاف إلى اختفاء تدريجي للرسومات الصخرية.
- **التصدؤ الكلي للخط** : يجعل قراءته و تفسيره صعب المنال.
- **الزلازل والصواعق**:لا يمكن للإنسان التنبؤ بحدوث الزلازل كيف ومتى إلا قبل وقت قصير من حدوثها وذلك لدرء أخطارها، وتسبب الزلازل أضراراً بالغة للنقوش الصخرية مثل الخلخلة والتشقق وأحياناً الانهيار وغيرها من الأخطار وتتناسب هذه العملية مع شدة الزلازل ومدتها. أما في حالة الصواعق فأمكن عن طريق تركيب مانعات الصواعق درء أخطارها وفي هذه الحالة لابدّ من دراسة مواقع النقوش ودراسة توزيع تركيب مانعات الصواعق وإجراء فحص دوري لها رغبة في إبقائها جاهزة الفعالية.

هكذا يمكن أن نقول أن الزلازل والصواعق تتسبب في تدمير كثير من هذه المواقع .

- **الأمطار والسيول:** ومن المخاطر الطبيعية التي تتعرض لها المواقع الصخرية هطول الأمطار بغزارة ولمدة طويلة أحياناً مما يسبب انجراف التربة أو زيادة نسبة الرطوبة النسبية فيها التي تُلحق أضراراً كبيرة إضافة إلى ارتفاع منسوب المياه الجوفية، أما السيول فتتسبب بانجراف التربة وتخلخلها...الخ.[294]

2-2 ـ الأضرار الناتجة عن سلوك الإنسان:

- ✓ **التحضر** : يشكل هذا العامل أهمية بالنسبة لتنمية البلاد و لكنه و بالمقابل له تأثيرات غير مرغوب فيها على التراث الوطني و على مختلف مكوناته المادية و الثقافية ، و ذلك تحت شعار التهيئة الحضارية الشيء الذي أدى إلى عدم احترام النصوص القانونية المنظمة لحماية التراث المغربي و ذلك عن قصد أو جهل مما جعل من بعض المواقع الاركيولوجية تغيب عن جدول تراثنا الثقافي .

إن هذا الهدم المستمر لم يستثن حتى المواقع الخاصة بفن النقش الصخري التي فقدت صخورها المنقوشة بسبب استعمالها في بناء قرى و مدن و ذلك تحت مرأى و مسمع السلطات المحلية كما أنه من الصدف أن تلك الدعامات الصخرية المنقوشة تتميز ببنية تغري أصحاب مشاريع البناء . و هكذا ،

[294] - اكريمي عبد الكريم ، المخاطر البيئية بحوض زيز السفلى (تافيلالت) نموذج الفيضانات ، بحث لنيل شهادة الماستر في الجغرافيا ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية ظهر المهراز ، فاس ، 2011/2010 ص 88.



أصبحت تلك المواقع تختفي في ظرف عشر سنوات و ذلك بعد أن كانت تقاوم تغيرات الطبيعة و لملايين من السنين ، مثل " موقع إيشت" و الذي كان يضم في سنوات الستينات المئات من الصخور المنقوشة ، و لكنه الآن لا يحتضن إلا عدد قليل من الصخور المنقوشة.[295]

و نفس الشيء ، بالنسبة لموقع " توريرين" بالقرب من تازارين و لم يعد يحتفظ إلا بقليل من الصخور المنقوشة بعد أن كان الموقع يعد محطة كبرى للصخور المنقوشة . و ما زالت مواقع كبرى مهددة بالاختفاء النهائي كموقع إغرم بتارودانت و الذي يضم تجمعا مهما للكتابات الليبية و صورا للعربات . و لكن – و للأسف – تحول هذا الموقع إلى مقلع لأحجار البناء .

تؤدي أشغال التهيئة و التجهيز إلى هدم مواقع أركيولوجية و كذلك النقوش الصخرية و خصوصا من بدء مسلسل فك العزلة عن العالم القروي .

- ✓ **صقل الأحجار** : إن المواقع الصخرية القريبة من التجمعات الحضرية تكون عرضة لعملية صقل رسوماتها و ذلك لجعل صورها واضحة . ترتكز تلك العملية على تعميق خط النقش و ذلك بواسطة أدوات حادة و هذا يؤدي إلى فقدان كلي للزنجار الأصلي للخط. مما جعل معرفة عمر الرسم صعبا ، كما أنه (الرسم) يغدو مشوها بفعل عملية الصقل . و هذه الأخيرة تخفي الأسلوب و التقنية المستعملة في إبداع الرسم مما يفقده قيمته العلمية و التاريخية ، كما انه تختلط الإضافات الناتجة عن عملية الصقل مع الصورة الأصلية.

إنه من السهل تحمل تلك الأفعال عندما يتعلق الأمر بساكني ضفاف الأنهار الذين لا يدركون الحمولة الثقافية و الهوياتية و العلمية لتلك النقوش و لكن من الصعب تفهم تصرفات بعض السياح الأجانب الذين يقومون بعملية صقل لتلك النقوش (مثال : مواقع عديدة في واد درعة).[296]

إن بعض الباحثين غير المؤهلين لا يترددون في بعض الحالات في القيام بعملية سحق الأحجار بمواد كيماوية ممنوعة الاستعمال خصوصا عندما يتعلق الأمر بأحجار صعبة النقل إلى أماكن أخرى. و تتعرض الصحراء الكبرى لهذه الظاهرة ، و التي تستفحل مع الصمت من طرف السلطات المحلية. كما نعاين - اليوم – مجموعة من الباحثين المنضمين في جمعيات ، الذين يجعلون من تراثنا مناطق للنفوذ و الإقطاع و مجالا للاستغلال ، ضاربين عرض الحائط كل بروتكولات الإتفاقيات الدولية و كل

---

[295] - مصطفى أعشي ، نقوش صخرية من إقليم السمارة ، دار النشر مكتبة تنمية الأقاليم الصحراوية ، شارع باتريس لومومبا ، الرباط. 2008. ص 117.

[296] - مصطفى أعشي ، ن م ، ص 120.

أدبيات و أخلاقيات استغلال تلك المواقع . كما أن القوانين الوطنية مازالت تعرف نوعا من التساهل و الثغرات التي يجب مراجعتها. بالإضافة إلى ذلك ، فالتجارة غير المشروعة انتعشت و لم تستثن حتى تحف النقش الصخري التي اجتثت من سياقها و أصلها و أصبحت زينة لبعض الحدائق.

هناك نوع آخر من التدهور الناتج عن النشاط البشري ، يتعلق الأمر بتقليد الصور الأصلية أو إضافة أخرى على النقوش الصخرية إلا أنه من السهل التمييز بين الأصلية منها و ذلك نظرا لأن الزنجار في المزور منها يكون واضحا.

هناك عدد من الأمور التي تحدث والتي يكون مصدرها الإنسان مثل: الحرائق والحروب وأعمال الهدم والتخريب.

أ ـ فقد يتسبب الإنسان عن قصد أو غير قصد في إشعال النيران بمحاداة هذه النقوش وتتطور تلك النيران لتطمس واجهة تلك النقوش .

ب ـ أما الحروب التي قد تؤدي إلى إسقاط قنابل بالمواقع الصخرية التي تحوي نقوشا و بالتالي تدميرها.

ج ـ أعمال الهدم والتخريب:

يُشجع ضعف المراقبة أحياناً كثيراً من المؤسسات أو الأفراد على القيام بأعمال تؤدي إلى هدم النقوش الصخرية فهناك خطر منظم ناتج عن حركة النمو والتطور في مشاريع تنظيم المدن والقرى وإقامة المشاريع الكبيرة كالسدود والسكك الحديدية وشق الطرق ، عموماً يمكن القول إن أعمال الهدم والتخريب التي ألحقها الإنسان بالنقوش الصخرية سبب فقدان الكثير منها بقصد أو بغير قصد وذهبت دون رجعة، وبقي أن نقول بضرورة تضافر الجهود لحفظ وصيانة ما بقي منها خدمة للأجيال القادمة في مجال الفن والثقافة والاقتصاد.[297]

3 - دور النقوش الصخرية في التنمية المحلية للمنطقة

3-1 ــ الإستثمار الثقافي للتراث الصخري :

إن مقاربة دقيقة و علمية لهذا الموضوع تقتضي منا الإجابة على أسئلة كثيرة و متداخلة من قبيل : ماهي المكانة التي يتعين إعطاؤها للتراث الصخري في كل سياسة تنموية تهدف إلى الإرتقاء بالمجتمع ؟ كيف يمكن التوفيق بين مستلزمات التحديث السياسي و الإجتماعي و الإقتصادي ، و ضرورة المحافظة على التنوع الثقافي(منها النقوش كمكون) الذي تتميز به المجتمعات البشرية ، و العمل على

[297]- Nami mustafa et Skounti ahmed , Patrimoine rupestre … , op .cit , p 60.

تنميته و إغنائه ؟ أي دور للموروث الصخري الوطني و المحلي في عملية التنمية ؟ ما هي الوظائف الإجتماعية و الإقتصادية و السياسية التي تقوم بها هذه النقوش ؟

و لعل أهم المقاربات التي يمكن اعتمادها في تحليل هذا الموضوع هي المقاربة الوظيفية للتنمية الثقافية التي تنظر للنقوش الصخرية من زاوية الوظائف النفسية و الروحية و الإجتماعية التي تقوم بها. و يرتبط ظهور هذه المقاربة بظهور مفهوم جديد للتقدم و النمو يحتل فيه البعدان الثقافي و الروحي مكانة جوهرية . فبعد أن كانت النظريات السياسية التنموية تعطي الأولوية للبعد الإقتصادي على البعد الثقافي ، و تعتبر أن الغاية من التنمية هي تحسين الظروف المادية لأكبر عدد ممكن من الشرائح الإجتماعية ، تبين أن تحسين المردودية الإقتصادية ، و تحقيق الرفاه الإقتصادي لا يلازمها بالضرورة تحسين في المستوى الثقافي و الفكري و الأخلاقي للمجتمع[298] .

هكذا صار الإهتمام بالنقوش الصخرية لكل من منطقتي درعة و تافيلالت واحدا من العناصر الأساسية التي يتعين استحضارها و إدماجها في كل استراتيجية شمولية للتنمية ، وباعتبارها جزء من المكونات الثقافية لمجتمع هاته المناطق أضحت أحد الأبعاد الرئيسية للتنمية البشرية كما تتصورها أغلب المؤسسات و المنظمات الدولية.

و لهذا إذن يتوجب علينا أن نساهم في توظيف هذا الإرث الصخري من أجل خلق ثقافة أكثر فعالية تستجيب لحاجيات الإنسان و تساعده على التكيف مع الاوضاع القائمة.

إن المحافظة على هذه النقوش الصخرية يشكل عاملا مهما من عوامل الإستقرار السياسي و السلم الإجتماعي ، و بديهي أن السلم الإجتماعي و الإستقرار السياسي هما شرطان أساسيان لكل تنمية اقتصادية شاملة و مستدامة.[299]

3-2 ـ الإستثمار السياحي للتراث الصخري :

تستغل غالبية مواقع النقوش الصخرية المتواجدة في منطقتي درعة و تافيلالت في إطار الرحلات السياحية على ظهور الجمال المنظمة انطلاقا من زاكورة نحو مرزوكة أو العكس. فهي إذن منتوجا سياحيا يستهوي السائح سواء الوطني أو الأجنبي . زد على ذلك أن بعض هاته المواقع الصخرية تقع في فضاءات تشكل مسارا مهما يمر عبره المشاركون في سباقات السيارات الدولية (منطقة الطاوس على سبيل المثال) و هو ما يلزم الجهات الوصية لتهييء هذه الفضاءات لجلب استثمارات سياحية مهمة للمنطقة و بالتالي خلق دينامية تنموية في المنطقة.

---

[298] ـ حماني أقفلي ، الثقافة و التنمية البشرية ، منشورات عالم التربية ، الطبعة الأولى ، 2006 ، ص 39.
[299] ـ حماني أقفلي ، المرجع نفسه ، ص 60-61.

و بالرجوع إلى المناظرة السياحية الخاصة بالإقاليم المتواجدة جنوب الأطلس ، من تنظيم وزارة السياحة ، و المنعقدة بمدينة أرفود يوم 1986/09/26 ، و التي خرجت بتوصيات أهمها تخصيص رصيد عقاري مهم يناهز 300 هكتار موزعة على المراكز الحضرية و القروية بالمنطقة ، خاصة بإنشاء وحدات فندقية من مختلف التصنيفات ، إضافة إلى مخيمات و مآو ، و إنجاز خطوط تربط المنطقة بمنطقة زاكورة و طاطا و الأقاليم الجنوبية . و كذا تنظيم تظاهرات تقافية و إنجاز كتيب يعرف بالمنطقة سياحيا ....، فإن كل المجهودات التي بذلت لم تصل إلى المستوى المطلوب بالرغم من وجود انتعاش في السنوات الآخيرة . إلا أن هذا الإنتعاش لم يكن له تأثير مهم في تنشيط الدورة الإقتصادية المحلية و لتجاوز هذه الوضعية و دعم القطاع السياحي في إطار تنمية مندمجة و مستدامة.ندعو إلى مناظرة ثانية ، تجمع جميع المكونات التي لها صلة بالمجال السياحي بهدف إعادة تنظيم المجال السياحي المحلي ، و كذا الفاعلين فيه في إطار شراكة تعاقدية تكون التوصيات قاعدتها.[300]

و في نفس الإستراتيجية السياحية ، نشير هنا ، إلى ضرورة تفعيل مشروع تحديد المسالك و المدارات السياحية خاصة الرابطة بين مواقع النقوش الصخرية بين درعة و تافيلالت.و الذي يعبر في الواقع تصورا راقيا لتسويق المنتوج السياحي وفق مقاربة و مقاييس جديدة تسعى إلى تقديم هذا المنتوج في قالب جديد و موضوعي يتماشى مع مكوناته الاساسية ، ويسهل استجابة الفضاء السياحي لرغبة السياح ، إضافة إلى تمديد فترة الزيارة السياحية لهذه المواقع ن و التي تنجز في ندة لا تفوق نصف يوم إلى يومين أو أكثر.

ولإبراز مكانة القطاع السياحي في النسيج الإقتصادي لمنطقتي تافيلالت و درعة انطلاقا من استغلال موارد النقوش الصخرية من خلال الزيارات السياحية يمكن أن نقول أن :

- القطاع السياحي يحتل مكانة مهمة في النسيج الإقتصادي من خلا إنعاش التجارة الغذائية و خدمات عديدة خلال فترات توافد السياح ، خاصة في فصل الصيف ، مما يساهم في خلق التوازن الإقتصادي و استقرار هذه الأنشطة.
- يعتبر القطاع السياحي موردا ماليا مهما في حياة السكان المحليين ، بفضل فرص الشغل في مؤسسات الإيواء السياحي و الانشطة المرتبطة بالنشاط السياحي . و من مميزات التشغيل في القطاع السياحي نذكر ما يلي :
- ارتفاع الطلب على اليد العاملة المحلية غير المؤهلة حيث يعمل معظمهم في الحراسة و النظافة و كمساعدين في المطبخ .

[300] - تيليوا مصطفى ، السياحة و الثقافة أهم رهانات التنمية ، ط 1،مطبعة تافيلالت ، 2009 ، الرشيدية ص 150.

- أهمية تشغيل الإناث و الفئة الشابة .

3-3 ـ الإستثمار الإقتصادي للتراث الصخري

إن هذا التراث الصخري هو بحق رأسمال هام و قابل للإستثمار من أجل التنمية بكل أبعادها ، فهو أحد المصادر الأساسية للشغل و الدخل و العملة الصعبة.كما يمكن الإعتماد عليه في بلورة نماذج تنموية جديدة .

و من أجل تحقيق ذلك لابد من الإنتقال من المحافظة التقنية إلى اعتماد مقاربة تنموية شمولية و تشاركية في التدبير بين الجماعات المحلية و الجمعيات.

إن الدور الإقتصادي للنقوش الصخرية بكل من منطقتي درعة وتافيلالت يتمثل في إدماجه في التنمية المحلية عن طريق السياحة الثقافية ، مع إشراك سكان المنطقة في هذا الإختيار من أجل الإتزان و التناغم بين الإنسان و بيئته .

و لكي يمكن لإنسان المنطقة أن يلعب دورا رياديا في إدماج المنطقة في التنمية فمن اللازم العمل على إطلاعه على جميع العمليات التي تخص منطقته حتى نكسب ثقته ، ذلك لكي ييسر لنا باقي الإجراءات الرامية إلى تحسين مدخوله.

و من هذه العمليات :

تحسيس السكان المجاورين لهاته المواقع الصخرية بأهمية الماضي في فهم الحاضر ، و قيمة التراث الصخري في ذاكرتهم و ضرورة الإرتباط به و اعتباره تراثهم ، و استقطابهم إلى داخل التراث.

و لكي نتمكن من إقناع أبناء المنطقة بأن ما تضمه هاته الرسوم او النقوش الصخرية هو جزء من تراثهم ، ولكي يستثمر في الرفع من اقتصاد و موارد المنطقة يمكن القيام بما يلي[301] :

- بناء طرق عادية تسهل التجوال إما على الأرجل أو بالدراجات الهوائية و الدراجات النارية أو الخيول.
- بناء غرف للضيوف لكل دار تحادي الموقع أو قريبة من المسلك السياحي القروي ، تتوفر هذه الغرف على الطاقة الشمسية لتوليد الكهرباء و لتسخين الماء مع مرافق صحية نظيفة.
- تكليف الساكنة بتدبير هذه الغرف و بخدمة السياح أكلا و شربا و نوما حسب عادات و تقاليد الساكنة لا حسب ما يتم في الفنادق ، و هذا كله بالمقابل ، و هذا المقابل تستفيد منه الساكنة لتنمية دخلها.

[301] - تيليوا مصطفى ، السياحة و الثقافة أهم رهانات التنمية .. م س ، ص 156.

- تكوين بعض حملة الشهادات أبناء المنطقة كمرشدين سياحيين متخصصين في تاريخ و آثار و حضارة المنطقة بالدرجة الأولى و تاريخ المغرب بصورة عامة.
- تهيئة فضاء للراحة يتضمن موقفا للسيارات ، و أكشاك لبيع المنتوجات التقليدية و مرافق صحية.
- وضع علامات التشوير تعلن عن المواقع الصخرية على جنبات الطرق الوطنية القريبة منها.
- وضع حراسة دائمة حول المواقع الصخرية لحمايتها من الفضوليين.
- نشر مطويات حول المواقع الصخرية .
- إنشاء غرف للضيوف في الدور المجاورة للمواقع الصخرية مجهزة بالمرافق الصحية و الطاقة الشمسية.

إن البحث في التاريخ القديم أمر لابد منه رغم الصعوبات التي تعترضه ،لأن هذه المرحلة تشغل حيزا كبيرا جدا من تاريخ الإنسان على سطح الأرض ، و بالتالي يمكن معها الوقوف على تطورات فكر الإنسان في مختلف مراحل هذه الفترة .

و لما كان الحجر هو المادة الأولى التي استعملها الإنسان منذ القدم إما ليصنع منها أدواته أو ليبرز فيها بالرسم و النقش ثقافته و كل ما يدور في العالم من حوله قبل أن يهتدي إلى اختراع الكتابة ، فإنه من اللازم دراسة هذه " الوثائق الحجرية" لأنها الشاهد الأول على نشاط الإنسان فوق الأرض .

إن النقوش الصخرية لا تخرج عن هذا النطاق لأنه كما يقال سبقت الصورة الكلمة كما سبقت الحركة المعنى ، ولهذا فهي جزء من تلك " الوثائق الصماء " التي تحتاج إلى استنطاق يعتمد طرقا موضوعية ، و من هنا يأتي دور منطقة باني – درعة (منطقة طاطا حاليا) التي تضم عددا كبيرا من النقوش الصخرية منحتها مكانة كبيرة في الجنوب المغربي (من مراكش إلى الصحراء) الذي يضم هذه النقوش في المغرب كله ، و ذلك باعتراف الباحثين الأجانب الذين درسوا نقوش المغرب ، و في هذا الصدد ، نورد قولتين لباحثين أدليا بدلوهما في موضوع نقوش المغرب خاصة نقوش درعة ، الأولى لأندري سيمونو A . Simoneau الذي اشتغل على منطقة درعة من 1967 إلى وفاته سنة 1979 , يقول : " إنه في الإطار الجهوي للجنوب المغربي ، درعة و ياكور تستحقان الدراسة من ناحية حضارة العصر الحجري الحديث لأنهما تضمان أهم النقوش الصخرية جنوب مراكش " [302] , أما الثانية فهي لأندري رودريك (A, Rodrigue) و الذي اشتغل على هذه المنطقة منذ التمانينيات من القرن الماضي و خاصة في التسعينيات منه , و يقول " المواقع التي توجد بها الحيوانات بكثرة(يقصد الحيوانات

[302] Simoneau(A) , les chasseurs-pasteurs de draà-moyen et les problèmes de la néolithisation dans le sud marocain , R, G,M ,n 16 , 1969 , p 112

المنقوشة على الصخور) هي الموجودة في باني و على طول حافة درعة خاصة في مجراه الأوسط",[303].

إن هذا يبين الاهتمام الذي يجب أن يولى لهذه المنطقة و لتاريخها القديم الذي يوضح كما قال أندري سيمونو ، جوانب من تاريخ المغرب في فترات ما قبل التاريخ

المراجع المعتمدة في الدراسة :

المراجع باللغة العربية :

1. عبد العزيز أكرير، دور درعة التجاري قديما، ضمن ندوة حوض درعة ملتقى حضاري وفضاء للثقافة والإبداع، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير 1996.
2. - أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك و الممالك، دار الكتاب الإسلامي، بدون تاريخ.
3. مرمول كربخال، افريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الاخضر ومحمد زنيبر واحمد التوفيق واحمد بن جلون منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف الجديدة، 1984،الجزء الأول.
4. محمد المكي بن موسى الناصري، طليعة الدعة في تاريخ وادي درعة، مخطوط بالمكتبة الوطنية مسجل تحت رقم د3786.
5. محمد المنوني، حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثار، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة المحمدية،1973.
6. كميل أرامبو ، نشأة البشرية ، ترجمة خليل الجر ، سلسلة ماذا أعرف ؟ بدون تاريخ النشر و مكانه .
7. سليمان أيوب ، دراسات في تاريخ المغرب القديم من عصر ما قبل التاريخ حتى العصر الروماني ، الدار البيضاء ، 1983
8. اكريمي عبد الكريم ، المخاطر البيئية بحوض زيز السفلى (تافيلالت) نموذج الفيضانات ، بحث لنيل شهادة الماستر في الجغرافيا ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية ظهر المهراز ، فاس ، 2011/2010 .
9. مصطفى أعشي ، نقوش صخرية من إقليم السمارة ، دار النشر مكتبة تنمية الأقاليم الصحراوية ، شارع باتريس لومومبا ، الرباط 2008.

[303] Rodrigue(A) , la faune du Maroc au néolithique d’après les gravures rupestres , SERP, les Eysines , B,n 37 ,juin 1988, p 85.



10.حماني أقفلي ، الثقافة و التنمية البشرية ، منشورات عالم التربية ، الطبعة الأولى ، 2006 .

11.تيليوا مصطفى ، السياحة و الثقافة أهم رهانات التنمية ، ط 1،مطبعة تافيلالت ، 2009 ، الرشيدية

المراجع باللغة الفرنسية :

1. Toutain(G,F),Développement Hydrologique Agricole au Sahara , Rabat, 1979.
2. Maury(R), Une route préhistorique à travers le Sahara occidental , in B.I.F.A.N.1947.
3. La Fanachère(CR) , Recherche de préhistoire dans la région Bani-Draa , BSPM n 7-8 .casa .1954 .
4. Searight (S) « gravures rupestres de haut atlas »ministre du tourisme.,casa .1992.
5. du puigaudeau(O) et S(M) , nouvelles gravures rupestres de l'oued Tamanart(sud marocain) , BIFAN.T.XXVII.S.n 1-2.1965.
6. Meunier(J)et Allain(Ch) , Quelques gravures et monuments funéraires, sud Marocain , Hés , T III , 1956.
7. Youssef Boukbot , Nouvelles recherches en archéologie protohistorique du Maroc , Tome II , Université Paul Valéry, avril 2012
8. Simoneau (A) , La région rupestre de Tazarine , documents nouveaux sur les Chasseurs pasteurs , revue de geographie du Maroc , n 20 , 1971
9. Simoneau(A) , les chasseurs-pasteurs de draà-moyen et les problèmes de la néolithisation dans le sud marocain , R, G,M ,n 16 , 1969
10. Simoneau A , Documents rupestres du sud marocain , in B.C.S.P , v XII , 1975 .
11. Simoneau(A) ,catalogue des sites rupestres du sud marocain ,ministre d'Etat chargé des affaires culturelles ,Rabat ,1977.
12. Nami mustafa et Skounti ahmed , Patrimoine rupestre et développement durable , colloque international, développement durable en Maghreb , rabat , 27-29 Avril 2000.
13. Rodrigue(A) , la faune du Maroc au néolithique d'après les gravures rupestres , SERP, les Eysines , B,n 37 ,juin 1988,
14. Valleverdu(R.V) , Nouvelles stations de gravures rupestres au sud Djbel Bani (anti atlas , Maroc) , B.S.P. de L'Ariège , T XXXVI , 1981
15. Meunier (J) , le Maroc saharien dés les origines au XVI siècle , 1982
16. Bellakhdar (J) , Tissint une oasis du Maroc présaharien , coll., Etudes Sahariennes éd .Albiruniya .Rabat .1992 .

17. Malhomme(J) ,Corpus des gravures rupestres du grand atlas , P.S.A.M.n13 , Rabat , 1989 , l'homme à l'inscription des AZIBES NIKKIS yagour (Notes et Documents) in B.A.M. Tome IV , 1960 ,
18. Malhomme(J), Les armes gravées du grand atlas , in congrès préhistoriques de France XIV session , 1953
19. Krug(L) , Notes sur Les gravures rupestres reconues dans la circonscription de Tafraout , , B.S.P.M.,1 – 2 semestre , 1939 .

من تراث المغرب





الحرارة تُعيد الحياة لحرفة على حافة الانقراض بآسفي



عبد الله النملي
كاتب وباحث

حاجة الإنسان للماء كانت دافعا نحو اتجاه العديد من الناس إلى مزاولة حِرف بعينها، كان من بينها السقاء أو "الكراب" باللفظ المغربي الدارج، غير أن المصادر التاريخية، تكشف صعوبة كتابة تاريخ حِرفي اسمه " الكراب " هَمّشه المؤرخون في اختياراتهم، واهتم به الفرنسيون الذين جمعوا كل ما من شأنه تعريف الغرب بالمغرب. و"الكراب" تختلف أسماؤه، غير أن صفته واحدة، فهو الشخص الذي بقي مُتشبثا بحرفة أصبحت في خبر كان، يَسْقي العَطْشى ويُبرد الحلوق الظمْأى، لا يفرض تسعيرة معينة، بل يقبل بما يجود به الناس عليه، وكأن عمله الصيفي تتمة للوحة صيفية لن تكتمل إلا بوجوده.

ومنذ عصور خلت، كانت مهنة "الكراب" من ضرورات الحياة المغربية، فقد كان صاحب هيبة في محيطه، فالكل يحترمه ويجل خدماته المائية، قبل أن تنافسه المياه المعدنية المُعَلّبة، ليستغني الزبون عن خدمة الكؤوس النحاسية، ويستبدلها بالكؤوس البلاستيكية، ويعوض خدمات "الكراب" بخدمة سريعة لآلة أو بائع متجول، مُستغنيا عن ناقوس إعلان "الكراب"، بلافتات الدكاكين المنتشرة على مد البصر. وبذلك فقد "الكراب" دورا أساسيا التصق به منذ القديم، وخاصة بعد ربط المنازل بشبكة توزيع الماء، وبات عمله مرادفا للفقر والتهميش، ومقصورا نسبيا على سقي الناس في الفضاءات العمومية، كما أمسى ماؤه



غير مرغوب فيه من طرف الذين يتحرون جودة المياه التي يشربونها. وهو ما جعله مجرد كائن من التراث اللامادي بالمغرب، وحضوره اليوم، يقتصر فقط على الملصقات والإعلانات السياحية.

وعلى الرغم من أن الوسائل الحديثة أثرت على "الكراب"، وجعلت دوره في طريق الانقراض، لا يزال "الكراب" بمدينة آسفي، يتمسك بعاداته، رغم أنه يدرك أن غالبية الناس لم تعد في حاجة إلى خدماته، إلا أنه يفعل ذلك من أجل الحفاظ على هذا الموروث الشعبي من الاندثار، والذي لازالت له حظوة عند بعض الناس، بما يُحرك فيهم من نوستالجيا. وقديما وقبل أن توجد إدارة المكتب الوطني للماء والوكالة المستقلة لتوزيع الماء، وتعم الحنفيات البيوت بآسفي، كان الناس يجدون صعوبة كبيرة في جلب المياه. ونتيجة لذلك، كان طبيعيا أن تختص بالمدينة طائفة من الناس تحترف عملية جلب المياه، سميت بالسقائين أو "الكرابة" على حد تعبير ساكنة آسفي. كانوا يحملون المياه في أكياس من الجلد، على شكل خروف أو ماعز، تُخاط وتُعد وعاء للماء، وكانت المياه تُباع على أساس القِربة، ثم تطور الأمر إلى ظهور نوع آخر من "الكرابة" يملؤون بالماء براميل كبيرة الحجم متصلة فيما بينها، تسمى " البيتية"، يضعونها في عربات ذات عجلات يجرها حمار، يطوفون بها الحواري والأزقة، ليزودوا البيوت باحتياجاتهم من الماء.

وبعد سنوات من اختفاء "الكراب" من حواري آسفي، عاد "الكراب" مجددا في موجة الحرارة الأخيرة، بعد أن اعتقد الجميع أن حرفة "الكراب" قد ولّت إلى غير رجعة، لما أصاب المدينة من تطور غَيّر معالمها، وقضى باستبدال بعض الحِرف بأخرى، لكن حِرفة "الكراب" انبعثت من جديد، واحترفتها مؤخرا حتى النساء بآسفي، لارتباطها بعائلات معينة توارثتها أبا عن جد، نظرا لمحافظتها على وظيفتها الاجتماعية بالبوادي والأسواق والمواسم، و عدم إجادة أصحابها أي حرفة أخرى، مما أدى إلى تمسكهم بها رغم قلة ما تُدِرّه عليهم من أموال. وعلى طول شارع الرباط، وباب الشعبة، وشارع ادريس بناصر، وكورنيش أموني، وساحة مولاي يوسف، وشاطئ آسفي، انتشر مجموعة من باعة الماء الذين ينادون في الناس " أبرد أعطشان، اينوب اينوب"، في مواقع اختيرت بعناية. إنهم "الكرابة"، شخصيات محبوبة ومعروفة بلغتهم المميزة، وهندامهم المزركش، وسراويلهم الحمراء، ونواقيسهم الرنانة، والشكارة والترازة التي تقيهم حرارة الشمس، تجعلهم أشبه بالمكسيكيين، وقِرَبهم المصنوعة من جلد الماعز، والمزينة أحيانا بالقطع النقدية القديمة، وقد علقت عليها زليفات أو طاسات نحاسية.

اقتربت من أحد "الكرابة" للحديث معه، بعد أن طلبت منه شُربة ماء، رجل ينحدر من إحدى الدواوير القريبة من مدينة آسفي، بلغ من الكِبَر عُتِيا، وتبدو عليه كل علامات الفقر والعَوز البَيّن، لا يعرف شيئا اسمه التقاعد والتأمين الصحي، حدثني والابتسامة لا تُفارق مُحياه، مؤكدا أن " مهنة "الكراب" صارت جزءا من الماضي، وتعيش أيامها الأخيرة، بعدما داستها عجلات التطور، وانتهى عمرها الافتراضي. مضيفا أن " عهد القِرْبَة قد ولى واستغني عن خدماتها مع ظهور المبردات العصرية للحفظ والحفاظ على

درجات البرودة ". وتابع قائلا أن " زبناء "الكراب" في الماضي كانوا بآسفي من النساء الحوامل، لكنهن اليوم يتخوفن من الأمراض المنقولة، ويتوحمن على الحلويات والشوكولاته "، وذكر أن " بعض النساء المسنات، هن من لازلن يقبلن على ماء "الكراب"، وكذلك الأطفال الصغار الذين ما أن يسمعن جرس "الكراب" حتى يتسابقن مطالبين بشربة ماء تروي عطشهن وتبرد حلوقهن ". وعن سر النكهة الخاصة لشرب الماء من القِربة، أخبرنا "الكراب"، أن للقِرْبَة مكانة خاصة تَحوزها في النفوس في فصل الصيف، نتيجة الطعم المتميز للقطران وباقي المواد الأولية، التي تنساب ماء زلالا من القِربة المدبوغة بمادة القطران، والمصنوعة من جلد الماعز الذي تكسوه شعيرات فعالة في الحفاظ على تبريد الماء دون الحاجة إلى الطاقة ".

وفيما يشبه العتاب لعوادي الزمن، حدثنا "الكراب" والحسرة تعلو مُحياه، كيف أصبحت الحِرفة التقليدية الموغلة في القدم، تنحو نحو الزوال، لقلة الإقبال عليها، وتراجع نقط التزود بالماء، في إشارة للقرار الجماعي السابق القاضي بتقليص عدد كبير من السقايات العمومية المفتوحة في وجه العموم، حيث تحول أغلب "الكرابة" بآسفي إلى متسولين يمدون أيديهم طلبا للصدقة، كما أن بعضهم ما عادوا يحملون ماء في قِرَبهم، ويكتفون بلباسهم التقليدي كنوع من الديكور اليومي، يتهافت عليهم أصحاب الصور التذكارية، ويؤثثون فضاءات الفنادق وأعراس كِبار القوم، بعد أن أصبح الماء يصل البيوت نظيفا، ويحمله الجميع مُعَبّأ في قوارير باردة ونظيفة، ودون مخاطر صحية. وفي الأخير، أبدى "الكراب" حسرة كبيرة، لما أصبح يتعرض له من سخرية، حينما يطلق بعض الناس لقب "الكراب" على بائعي الخمور. وفي ذلك ظلم كبير لهذه المهنة الشريفة، فشتان بين يروي العطشى بالماء البارد بالمقابل أو بدونه، و من يبيع الخمور المحرمة للمسلمين.









قراءة في كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب



وليد موحن
باحث في تاريخ المغرب

مقدمة

يعتبر كتاب "البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب " لمؤلفه إبن عذارى المراكشي، من أمهات المصادر التي تضم بين طياتها معلومات تاريخية غاية في الأهمية تهم الرقعة الجغرافية من بلاد المغرب، وأرض الأندلس، من أيام الفتح الإسلامي إلي بروز دولة بني مرين .

ويشمل الكتاب في النسخة الأصلية علي ثلاث أجزاء كما جاء علي لسان ابن عذارى، [304] "ولما كمل وقيدته وجردته جزيته علي ثلاث أجزاء كل جزء منها كتاب قائم بنفسه ليكون لمطالعه أوضح البيان، وأسهل المرام لدي العيان " ، لكن بعد فقدان الكثير من أجزاءه أعيد طبع نسخ أخري منقحة من طرف مجموعة من الباحتين أمثال المستشرقين ليفي بروفنصال ،ودوزي ،والفلسطيني إحسان عباس في خمس أجزاء يتضمن الجزء الأول تاريخ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، والثاني يتناول أخبار الأندلس، ويضم الجزء الثالث أحوال ملوك الطوائف ،ويركز في الجزء الرابع علي دولة المرابطين ، بينما ينتهي الخامس بنهاية دولة الموحدين وبروز عهد بني مرين.و الذي يهمنا هنا هو جزء دولة المرابطين وأخبرها في زهراء الأندلس ، وأرض المغرب الذي يقع في مائة وثمانون صفحة من تحقيق ومراجعة

[304] - أبو العباس احمد بن محمد بن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان و بروفنصال ،ج1 بيروت119.



الدكتور إحسان عباس، يتناول في هذا الجزء ابن عذارى عصر الدولة المرابطية من النشأة والنمو إلي القوة والازدهار والاستقرار، نهاية بضعف والانهيار. وتجدر الإشارة إلي أن ابن عذارى لم يكن معاصر للأحداث بل إعتماد علي ما كتب من قبله من مادة تاريخية مدونة ،وروايات شفوية منقولة ،وسنحاول في هذا العرض تسليط الضوء علي الجزء الرابع من خلال تلخيص مركز لما ضمه الكتاب، وقراءة نقدية حول مضمونه، ومناقشة بعض أفكاره وتقييم محتوياته حيت سنبرز بعض النقط التي جانب ابن عذارى فيها الصواب أو تلك التي لم يتضمنها في ثنايا الكتاب، وكذلك علي أهم ما انفراد به الكتاب وتحلي فيه بالصدق والموضوعية ،وسنعمل علي مقارنة بعض الأحداث المدونة في الكتاب مع باقي المصادر الأخرى التي لا تقل أهمية عنه مثل " الأنيس المطرب في روض القرطاس" و"التبيان" ونأمل بان يكون نقدنا بناءا وأن نتحرى الصواب في التجربة الأولي في هذا المضمار .

1. حياته

هو أبو عباس أحمد بن محمد بن عذارى المراكشي ، معلوماتنا عنه قليلة جدا فهناك العديد من التواريخ المتضاربة حول حياته وعام منيته، لكن في الأرجح أنه عاش في أوائل القرن الثامن الهجري والرابع عشر ميلادي وكان معاصر لدولة المرينين. ولم يسعفنا الوقت في النيل أو العثور علي السيرة الذاتية للمراكشي سوي بعض المعلومات القليلة والغير المتطابقة فيما بينها ،حيت [305] تظل شخصية المؤرخ ابن عذارى محجوبة عنا إلي الآن رغم أن اسمه يتردد في كل دراسة تتعلق بالأندلس والمغرب فيما قبل القرن الثامن الهجري والرابع عشر ميلادي. فابن عذارى من المؤرخين الذين نسوا أنفسهم فلم يشر في الأجزاء المعروفة من كتابه لحد الآن إلي شيء من الأشياء المتعلقة بمعالم شخصيته، أو أسرته ، وظيفته، أفكاره ،مشاغله باستثناء بعض الإشارات القصيرة إلي بعض من إستفاد منهم من أهل العلم .وبالرغم من ذلك يبقي ابن عذارى من أهم من أنجبت بلاد المغرب في مجال التاريخ، فكتابه يعد أثمن وأهم ما كتب في التاريخ الإسلامي الوسيط ،فابن عذارى يظل هرما شامخا من أهرام المؤرخين في تاريخ المغرب وأرض الأندلس لغزارة المادة التاريخية في كتاب "البيان المغرب في أخبارالأندلس والمغرب " وقد إعتمد في هذا الكتاب منهجية تاريخية دقيقة في التدوين، تجلت في إتباعه المنهج الحولي بذكر أخبار كل سنة علي حدة ،مما يظهر إطلاعه علي المدارس والمناهج التاريخية التي كانت سائدة قبله ،كما قسم كتابه إلي مجموعة من الموضوعات والوحدات كل خبر علي موضوع معين ،بذلك فابن عذارى رائد من رواد الكتابة والتدوين في تاريخ المغرب الوسيط برغم من أن غياب معلومات عن حياته تطرح الكثير من علامة استفهام، فكيف يعقل أن يكون مؤلف بهذه القيمة التاريخية والغنى المعرفي والمنهجي والأسلوب التاريخي المحكم ،أن يكون صاحبه مجهول الهوية فلا نعرف عليه سوي إسمه

---

[305] عبد القادر زمامة تاريخ ابن عذارى المراكشي مجلة المناهل العدد17 مارس1980 ص 214_215

وكتابه الثمين دون التفاصيل الأخرى من حياته وفكره وعلمه، أفلا يفقد هذا الشيء قيمة المادة التاريخية التي أنجزها ابن عذارى .

2. تلخيص مركز لمضامين الكتاب

ينطلق ابن عذارى في بداية سرد الأحداث ضمن متون كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب أو البيان المغرب في إختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب كما يرد في بعض الأحيان بذكر تفاصيل رحلة يحيي إبن إبراهيم إلي الحج ،ولقاءه عند رجوعه مع الشيخ عمران الفاسي، وبداية أمر اللمتونين مع الداعية عبد الله بن ياسين الذي أخد يعلمهم دين الإسلام وكيفية إتباع منهج الرسول عليه السلام في قبيلتي جداله ولمتونه ومسوفة مهد دولة المرابطين، التي كانت تعيش في جهل وتخلف وعلي دوامة الحروب الدائمة .وينفرد ابن عذارى بذكر أحوال المرابطين وكيفية نشوء دولتهم، وعن سبب تسميتهم بالمرابطين، وعن أصولهم وشجرة عائلتهم ،وصولا إلي توطيد السلطة مع آبي بكر اللمتوني الذي استقرت معه الدولة وإجتمعت عليه الأمة وبدأ في بناء مدينة مراكش، لكن جاءته أخبار عن غزو وهجوم جدالة علي أهله وقومه فإنصراف إلي الصحراء لنصرة بني ملته وولي علي الحكم ابن عمه يوسف إبن ثاشفين ،الذي ستبلغ معه دولة المرابطين أوجها الحضاري والمادي والعمراني والإستقرار الخارجي والداخلي والتوسع المجالي، حيت أكمل بناء مراكش وتزوج من السيدة زينب النفزاوية الزوجة السابقة لأبو بكر اللمتوني ، وبعد رجوع هذا الأخير من الصحراء وجد البلاد علي أحسن حال والناس في نعيم وأمان فأعطي البلاد بشكل نهائي إلي يوسف إبن تاشفين الذي سيستمر في الفتوحات في تلمسان ،فاس ، ومكناسة كما يتناول الكتاب أخبار أبناء يوسف بن تاشفين وطريقة تسيير الدولة في ظلهم، بعد وفاة أبيهم حيث استمرت الدولة قوية متراصة في عهد علي بن يوسف الذي سار علي منوال الأمير يوسف بن تاشفين . وينتقل ابن عذارى إلي الحديث علي حال المسلمين في بلاد الأندلس علي عهد المرابطين، وعن أذيتهم من النصارى الحاقدين خاصة في عهد الكبيطور الذي أداق مسلمي بلنسية ويلات القهر، والظلم والتسلط إلي أن فتحت علي يد الأمير مزدلي بعد هزيمة المرابطين في المرة الأولي، ويتناول المراكشي كذلك بعض أخبار قرطبة وطليطلة وبعض الأمراء المرابطين الذين مروا عليها ،كما يتحدث في جزء من الكتاب عن دعوة الموحدين وظهور حركاتهم بقيادة المهدي بن تومرت وصراعه المرير والطويل مع المرابطين ،إلي حدود سنة خمسمائة وأربعين ويختم الكتاب في هذه النسخة بمجموع من الملاحقات تتضمن بعض الأخبار حول جوازات يوسف إبن تاشفين ،وعن معركة الزلاقة المظفرة التي يخصها ابن عذارى بجزء طويل حيث يذكر ظروف استنجاد المعتمد بن عباد بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين وتفاصيل المعركة منذ البداية حتى نهايتها بانتصار جيوش المسلمين علي النصارى وملكهم ألفونسو السادس، كما يذكر بعض من استشهدوا في هذه المعركة المظفرة وما بين هذه الأخبار هنالك أخبار أخرى عن تسمية يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين ،وحرق كتاب الإحياء للغزالي وبعض حروب

المرابطين مع حركة الموحدين إلي حين عام أربعين وخمسمائة ،عام هزيمة المرابطين ونهاية دولتهم وبداية عصر الموحدين مع قائدهم عبد المؤمن الكومي ،وقد جاء الكتاب على أربعين خبرا الجزء الأكبر منها يضم أخبار المرابطين في المغرب ،وما تبقي من أخبار في أرض الأندلس.

3. قراءة نقدية حول الكتاب

يضم الكتاب بين طياته العديد من الأخبار والمعلومات والأحداث التي عاشت في ظلها دولة المرابطين ،والتي بلغت أربعين خبرا منها من تناوله ابن عذارى المراكشي بكل دقة وموضوعية ،ومنها موضوعات تجاوزها بسطحية ،وهناك مسائل أغفلها بالمرة، وسنحاول أن نقدم دراسة نقدية بسيطة حول ما أثار انتباهنا أثناء قراءة الكتاب، لا ندعي هنا القيام بدراسة وصفية تشريحية للمؤلف بل مجرد دراسة متواضعة تحتمل الخطأ والصواب فالكتاب غزير المادة التاريخية وغني بالمعلومات الحصرية.

- أول ملاحظة تسترعي الإنتباه هي كون ابن عذارى لم يكن معاصر للأحداث ،ولا شاهد عيان بل إنه نقل عن ما وصله من مادة وبذلك الكتاب لايوازي من حيث القيمة الكتب الأخرى التي كانت معاصرة.
- إن الباحث في التاريخ ،الإجتماعي ، والإقتصادي، والعمراني لا يجد بين ثنايا جزء دولة المرابطين، سوي معلومات قليلة وضئيلة وإشارات سريعة حول هذه الموضوعات، فالكتاب لايتحدث عن العمران الذي بلغ ذروته مع المرابطين نتيجة التأثيرات الأندلسية، وهكذا دواليك مع باقي الموضوعات علي عكس المصادر الأخرى التي تناولت هذه الجوانب بأدق التفاصيل منها كتاب "التبيان" لعبد الله بن بلقين "والحلل الموشية" "والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" بالرغم من الطابع الأدبي لهذا الأخير، تناولت هذه المؤلفات الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والأدبية بكل تعمق وتحليل ودقة سواء في دول الطوائف أو أرض المغرب علي عهد المرابطين ، إن الكتاب في جزءه الرابع يحمل حمولة سياسية ينصهر فيها من البداية إلي النهاية، فهل يمكننا اعتبار هذا تقصير من إبن عذارى أما أن المادة المصدرية لم تكن متوفرة في تلك الحقبة التاريخية حول هذه المواضيع فهل يحق لنا اعتبار هذا المعطى من السلبيات.
- ينطلق ابن عذارى من سنة خمسمائة وأربعين في ذكر أحداث دولة المرابطين أي مند رحلة يحيي إبن إبراهيم إلي أداء فريضة الحج ،ولقاءه مع الفقيه عمران الفاسي ،وشيخ وحاج وهذا التاريخ غير متفق عليه في عموم المصادر، خاصة في كتاب "الأنيس المطرب في روض القرطاس" لمؤلفه ابن أبي زرع الذي يتحدث عن بداية أمر المرابطين قبل سنين حيث يذكر سنة خمسمائة وأربع وثلاثين.

وهذا ليس الاختلاف الوحيد بين المصدرين، حيث نجد اختلاف غير بسيط في مجموعة من الأحداث والوقائع وهما مصدرين متأخرين بمعني أنهم بعيدين عن الأحداث فهل يمكن القول إن

المصادر المتأخرة لم تتوخي الدقة اللازمة ،واكتفت بنقل الأخبار بدون تحليل وتمحيص وتدقيق وهو ما يتكرر مع العديد من المصادر المتأخرة كالإستقصا في أخبار المغرب الأقصى للناصري عكس تلك المعاصرة.

- أظهر ابن عذارى المراكشي دقة وموضوعية كبيرة في بعض القضايا، ومن جملتها حديثه عن الداعية عبد الله بن ياسين فإذا كانت معظم المصادر وحتى الكتب التي تم إصدارها عن المرابطين في الوقت الراهن، تذهب إلي تمجيد صورة عبد الله ابن ياسين بذكر ورعه ،وتقواه ،وزهده ،وفضائله، وكرامته فإن إبن عذارى ذكر بعض من مساوئه في قوله[306](وأما ما شد فيه عبد الله من الأحكام ومما يحفظ من جهل عبد الله بن ياسين) .
- ومن ناحية أخري، يبلغ ابن عذارى في ذكر محاسن وفضائل ومنجزات السيدة زينب النفزاوية زوجة أبي بكر بن عمر أول من حكم المرابطين ومن بعده أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، حيت يذهب الكاتب إلي التسليم ببعض الخرافات والخوارق حولها وإبتكار أساطير حول شخصيها، من قبيل :كانت هذه المرأة موسومة بالجمال والمال وكان لها محاسن وخصال محمودة وروية مستطرفة فقيل والله أعلم أن الجن كانت تخدمها وقيل غير ذلك كما تقدم.
- السقوط في تكرار بعض الألفاظ أو المواضيع، خاصة في تعريف يوسف بن تاشفين، فهل هو الخلط إذا إعتبرنا أن إبن عذارى من زمرة الإخباريين .
- الأمانة العلمية والتحلي بالصدق والموضوعية في إرجاع الأقوال إلي أصاحبها، حيث نجد بين ثانيا الكتب من بدايته حتى أخر سطر فيه أقوال مثل[307] قال ابن حمادن، [308] قال الراوية،[309] قال الوراق في المقباس،قال البياسي، قال أبو بكر بن يحيي بن محمد الأنصاري ، قال محمد بن علقمة كما اعتمد علي العديد من الكتب التي تعتبر من أهم وأوثق ما كتب في التاريخ الوسيط ،فهل يدفعنا هذا إلي القول أن ابن عذارى كان مجرد سارد لما تم تجميعه من قبله فنصف الكتاب مقتطفات ممن سبقه خاصة من كتاب النظم الجمان لابن قطان.
- في سياق حديثه عن إحراق كتاب الإحياء للغزالي يتجاوز الكاتب هذا الحدث في نوع من السطحية، ولا يقدم لنا معلومات مستوفية حول دوافع وأسباب ذلك لا عن مضمون وفحوى كتاب الإحياء ولا الأفكار التي نادي بها، ولا الأسباب والدوافع التي حتث المرابطين لإحراق هذا

306-أبو العباس أحمد بن محمد بن عذارى المراكشي ،البيان المغرب في أخبار الأندلس المغرب، تحقيق إحسان عباس، ج4، بيروت ، ص 16

307- نفسه ص 58-98-99-101-10٣

308-نفسه ص50.

309- نفسه ص .78



الكتاب ،فهل هو قلة معرفة ابن عذارى في ميدان التأليف الديني أم عدم رغبته في الخوض في مثل هذه الأوامر الدينية المتشعبة.

- إعتمد ابن عذارى في رواية الأحداث علي منهج محدد، يتجلي في أسلوب الحوليات أي ترتيب الأخبار علي إمتداد تسلسل السنوات مع الإيجاز و تقسيم الموضوعات إلي وحدات ، وهذا يدل علي عمق المعرفة وإطلاع ابن عذارى حول ما كتب من قبله.
- ومن ناحية أخري، يطغي علي الكتاب الجانب السردي والوصفي للوقائع والأخبار، ولا يضم تحليلات علي غرار ما نجد في باقي المصادر الأخرى مثل كتاب التبيان لعبد الله بن بلقين الذي يتميز برؤية واضحة ومنهجية مغيرة خصوصا في ذكري معركة الزلاقة لكونه كان مشارك في الأحداث ويلعب دورا فيها فهل هي ضعف القدرة التحليلية عند ابن عذارى .
- يقدم لنا ابن عذارى، معلومات متميزة عن معركة الزلاقة من بدايتها حتى انتصار المسلمين، فيها لكن اعتقد انه سار في سرد أحداتها بنوع من السطحية واعتمد علي الروايات التقليدية ربما لبعده الزمني عن الموقعة ،علي عكس ما ورد في المصادر المعاصرة آوتلك المشاركة في أحداث المعركة التي توخت الدقة والموضوعية ولعل خير مثال علي هذا كتاب "التبيان" لعبد الله بن بلقين حاكم غرناطة ،الذي كان من بين المشاركين في المعركة ولعل روايته هي الأصدق في كل ما كتب عن هذه المعركة إضافة إلي رواية ابن القصيرة.

خاتمة

إن كتاب" البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب " كتاب فريد من نوعه بأخباره وطريقة سرده وبتغطيته فترة زمنية طويلة من تاريخ المغرب والأندلس. لقد نجح ابن عذارى المراكشي بفضل حنكته ومعرفته بوقائع الأحوال، وماضي الأمم قبله أن يقدم لنا مصدر رئيسيا وأساسيا بمعلوماته الغزيرة وأخباره الكثيرة، إنه كنز ثمين، ومعدن نفيس يجتذب أي باحث أو قارئ لتاريخ المغرب والأندلس، حيت يقدم لنا ترجمة ولوحة تاريخية غاية في الإبداع ترسم أغوار تاريخ المنطقة منذ فجر الإسلام إلي شروق شمس دولة المرينين، وما بين هذين الفترتين تعاقبت علي الأندلس والمغرب حكام وأسر وأحداث ووقائع غيرت مجري التاريخ ،وبالرغم مما يطفو علي الكتاب من الهفوات واسلبيات الموجودة من دون شك في كل الكتابات من هذه النوعية، فإن الكتاب يبقي من أحسن وأروع ما كتب عن تاريخ الأندلس والمغرب ،وعسانا أن نكون قد تحرينا الصواب في دراستنا لهذا الكتاب، الذي أتحفنا بمعلومات وفيرة وغنية لم يكن لنا بها علم قبل الإبحار في خبايا "البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس" جزء المرابطين.



تاريخ مدن المغرب







التقاليد والأعراف الرباطية : الروافد والخصوصية

يونس كبزيز
باحث في تاريخ المغرب

مقدمة

ساهمت الخصوصية الجغرافية للمغرب – أقصى الشمال الغربي لإفريقيا – في جعله نقطة إلتقاء بين الحضارات الشرقية والغربية ، الشمالية والجنوبية ، فكان بذلك معبرا وممرا لها فاحتضن ثقافاتها مؤثرا فيها ومتأثرا بها ، واكتسب بذلك خاصية التعايش الحضاري التي تميز بها، فكان لامتزاج واختلاط السكان الأصليين بالوافدين دور في تشكيل هوية مغربية موحدة بالرغم من المتغيرات التي يفرضها التنوع الثقافي لهذه الأجناس ، التي تمغربت و صار من الصعب عليها العودة إلى ثقافتها الحضارية كما كانت [310] .

[310] حقي محمد حقي (محمد)، **البربر في الأندلس دراسة لتاريخ مجموعة إثنية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية 92 هـ/711م – 422 هـ / 1031 م** ، شركة التوزيع و النشر المدارس ، الطبعة الأولى ، مطبعة النجاح الجديدة –الدار البيضاء ،1422هـ/2001 م ، ص : 283

لقد كان المجال الرباطي من المجالات التي شهدت هجرات (يهود،عرب، أندلسيون ..)متتالية فكان بذلك معبرا للثقافات وملتقى لها ، ساهمت في تكوين التشكيلة البشرية للمجتمع الرباطي على مدى قرون طويلة ، فكان لهذه العناصر دور في إعطاء مدينة الرباط لونا خاصا بها يميزها عن باقي المظاهر الثقافية بالمدن المغربية الأخرى ، خاصة في العادات و التقاليد ، التي تعتبر الواجهة الثقافية لأي مجتمع ، و كان العنصر الأندلسي من أهم العناصر التي أثرت في العادات و التقاليد بالمجتمع الرباطي ، فمنذ استقرار العائلات الأندلسية بالرباط ، و هي تلعب أدوارا طلائعية ، في الحياة العامة للمدينة ، و على كافة الأصعدة [311] من ضمنها الحياة الثقافية للمدينة ، و سنذكر من هذه العادات ما أسعفتنا عليه المصادر والمراجع ، و هي :

← **الاحتفاظ بشجرة النسب الأندلسي** [312] و هي عادة حفظ الأنساب من الضياع ، و يعد عمل توثيقي له أهمية كبرى (في التاريخ) و هي من العادة التي حملها الأندلسيون معهم إلى المدينة، و يبدوا أنها من العادات التي ورثوها عن العرب المشارقة الذين هاجروا إلى الأندلس في عهد الدولة الأموية .

← **العادات الغذائية** : تميز أهل الرباط بأنواع محددة من المأكولات ، بعضها خاص بالحفلات و المناسبات ، التي يجتمع فيها الأهل و الأصدقاء ، و سنعتمد في ذكربعض الأمثلة من هذه الأنواع ، على قصيدة شعرية تصف بعض المأكولات الغذائية الخاصة بهذه المناسبات حيث يقول الشاعر:

فمرحبا و مرحبا   أهلا و سهلا أقبلوا

وذالك في صبيحة   السبت الذي يستقبل

فغسلوا و بكروا   وأسرعوا و هرولوا

وهيئوا بطونكم   لزردة تفضل

فطورها فرتونة   تسقط لها الحوامل

ثم أتاي معه   غريبة و قرشل

بغريرها منوع   مسكر و معسل

---

[311] الزين (عبد الفتاح) ، " علاقة البادية – مدينة بالمغرب منطقة الرباط نموذجا"، **البحث العلمي مجلة العلوم الاجتماعية و الإنسانية ، العدد43 – 44 السنة 30 ، ملف العدد: المجال التجليات و الاستعمالات** ، المعهد الجامعي للبحث العلمي ، الرباط ، جامعة محمد الخامس- السويسي ، 1997 ص : 64

[312] كريم (عبد الكريم)، **رباط الفتح عاصمة المملكة المغربية**، منشورات كلية الأداب – جامعة محمد الخامس ، د.ط ، الرباط ، 1420/1999، ص: 56

و كفتة من فوقها   بيضة كل تجعـــــــــل

ثم دجاج بعدهـــا   الصحيح و المفصـــل

ثم شـــراب قهوة   عن حسنها لا تسألـوا

وماء ورد عاطـــر   زينه القرنفـــــــل

و روض أنس باسم   والبسط فيه شابـــــل[313]

تزخر هذه القصيدة بالمعلومات عن العادات الغذائية لأهل الرباط خاصة في المناسبات ، كما تخبرنا عن كرمهم و جودهم ،و حسن استقبالهم لضيوفهم ، كما نستنتج من القصيدة أن أهل الرباط قد اعتادوا على صلة أرحامهم بتبادلهم للزيارات الأسرية فيما بينهم ، في يوم معلوم هو يوم السبت ، حيث يتم استقبال الضيوف بفطور متكون من فرتونة ، مرفقة بالشاي و الحلويات و مأكولات مغربية أخرى كالبغرير ، أما في وجبة الغذاء ، فيظهر أن أهل الرباط قد اعتادوا على تقديم و جبتين في المناسبات ، تتكون الأولى من اللحم المفروم (كفتة) تتوسطها بيضة ، يليها طبق ثاني متكون من لحم الدجاج ، و ينهي الضيوف زيارتهم في المساء ، بعد شرب قهوة خاصة لذيذة ، أما عن المأكولات الأخرى فهناك " كساكيس المخفية ، و المروزية ، و الكعك و المقروط ، و المخرقة و الحلاوي "[314]

← من العادات التي أشتهر بها أهل الرباط نجد **تغنيهم بالموسيقى الأندلسية**[315] التي تعد لها جلسات خاصة في نوادي المرح و الترفيه ، حيث تشنف أسماعهم بأنواع من الموسيقى الأندلسية كما توضح ذلك الصورة التالية:



بعض الرباطيين في إحدى نوادي الأنس يستمتعون بالموسيقى الأندلسية[316]



[313] كريم ، **رباط الفتح عاصمة المملكة المغربية**، ص 58

[314] نفسه

[315] نفسه ، ص 57

[316] Malka (Jean Pierre), **Rabat D'hier Et D'aujourd'hui** , Edition Marsam 2002 , Impression okad -rabat , Décembre 2002, p123

و من عادات أهل الرباط الحفاظ على الخط الأندلسي [317] الذي نافس الخط المغربي ، حيث كان يستخدم في البناءات العمرانية لما يضفيه عليها من جمالية فنية ، و كما ذكرنا سابقا عن التأثير الأندلسي الظاهر في المجتمع الرباطي و الذي وصل إلى حد التأثير اللغوي ، حيث أصبحت من عادات أهل الرباط ، استعمال عشرات من الكلمات و المصطلحات الإسبانية [318]

بعض المصطلحات الإسبانية في اللهجة الرباطية[319]،[320]

بعض المصطلحات الإسبانية التي ادخلها الموريسكيون إلى اللهجة الرباطية		
بوجادور	كونطراباندو	الريحيا
ماريو	فالصو	فليزا
بابور	فالطا	باندير
بانيو	فابور	بومبه
براكة	باراطو	كلاطا
كابيسا	الكاسرولا	المونطيرا
قميزا	الكروسة	البوبيدا
بعض المصطلحات الإسبانية التي ادخلها الموريسكيون إلى اللهجة الرباطية (تتمة)		
كارو	الكرويلا	الطارما
تشاكيطا	الصباط	لويزا
كومير	بلاصة	سوبا

[317] كريم ، **رباط الفتح عاصمة المملكة المغربية** ، ص 56
[318] **نفسه** ، ص : 57
[319] جازوليت ، **مدينة الرباط من خلال الوثائق** ، صص : 92 و 93
[320] كريم ، **رباط الفتح عاصمة المملكة المغربية** ، ص : 57

فابريكا	تيرا	بوفرتونا
فداوش	طيارتو	البصطيلة
دوندة	سويرتي	سكويلا
كوما	صيمانة	سبيطار
ليترو	صندالة	فاميليا
ماليطا	روينة	برميل
مانيرا	باكيط	بوطا
مايو	بندير	الصالة
نيكرو	كارطا	

كذلك من عادات أهل الرباط الخروج للنزهة في ضواحي الرباط [321] التي كانت عبارة عن بساتين و عرصات و أجنة و كان يخصص لهذه النزهة يوم السبت من كل أسبوع .

← **عادات الزواج** : للرباطيين عادات خاصة في طقوس الزواج ، التي تكون على الطريقة الإسلامية بالنسبة للمسلمين من أهل الرباط فيما يخص الواجبات الشرعية أما الاحتفالات فتكاد تكون مشتركة بين المسلمين و اليهود مع بعض الاختلافات التي تفرضها العقيدة الدينية ، فقبل حفلة الزفاف ، تكون خطبة العروس ، حيث يتم اختيار الزوجة للفتى الذي لا يملك رأيا في ذلك ، فتقوم عائلة الفتى بإرسال بعض الوجهاء و الشرفاء للتمهيد للخطبة ، و بعد التراضي و وقوع القبول ، و الاتفاق على الواجبات الشرعية ، من صداق و مهر و غيرها من شروط الزواج ، يتم تحديد موعد الاحتفال بالخطبة ، فيتم الاجتماع في دار الفتاة ، حيث تقام حفلة على شرف أهل العريس ، يقدم فيها الحليب و التمر و الحلويات ، و يتطيبون بماء الورد و مباخر الند و عود الصندل (لقماري) [322] ، أما عند حلول موعد الزفاف فيتم دعوة جميع الناس للعشاء ، عن طريق منادي الذي يجوب الأسواق و أحياء المدينة ، و تقدم في هذه الليلة للحضور كؤوس الشاي و أنواع الحلويات ، مرفقة بموسيقى الطرب الأندلسي ، التي ترافق

---

[321] كريم ، **رباط الفتح عاصمة المملكة المغربية** ، ص : 59

[322] السويسي ، **تاريخ رباط الفتح**، ص : 156



العروس إلى عروسه ، و كانت لدى الرباطيين عادة غريبة في طقوس الزواج ، حيث تظل العروسة مغمضة عينيها كلما دخل عليها أو كلمها عريسها طيلة أسبوع العرس الذي ينتهي بحفلة أخر الأسبوع و تسمى حفلة السلام يقيمها العريس و يحضرها أهل العروس الذين يجلبون معهم أطعمة و حلويات متنوعة بالإضافة إلى الفواكه الجافة و الطرية في موائد مغطاة تسمى الطفاير[323] وسط زغاريد و أصوات متعالية بالصلاة على النبي ، كما يحضر هذه الحفلة ذوو المحرم من أهل العريس للسلام على العروسة (من هذا الغرض سميت بحفلة السلام) و مشاهدة طلتها الأولى ، و كان لا يرى العروسة فيما بعد إلا من حضر هذه الحفلة [324].

← **حفلة لالة كسابة** : هذه الحفلة من العادات التي جاء بها الأندلسيون معهم ، وهي حفلة تقام يوم الجمعة الأولى من شهر رجب من كل سنة ، تقوم فيها النسوة بالاجتماع بشكل تلقائي في شارع العلو[325] ، و يتوجهون إلى ساحة لودايا ، أمام ضريح سيدي عبد الرفيع الأندلسي[326]، و يحضر فيها الأطفال الذكور منهم و الإناث ، مرتدين أحسن و أبهى ما لديهم من اللباس ، و تكون الفتيات متزينات بأفخر الثياب و المجوهرات ، و التي تتكون في الغالب من مثل ما تلبسه العرائس ، و يتغنون بأغاني تعبر عن رغبتهم في الزواج ، حيث تنشد الفتيات :ألالة كسابة عطيني الراجل دابا دابا

و يجيب الذكور :ألالة كسابة عطيني لمرا دابا دابا [327] و غالبا ما تكون هذه الحفلة سببا في تسهيل التعارف و الزواج

الفتيات صغيرات و أمهاتهم بحفلة لالة كسابة [328]



[323] السويسي ، **تاريخ رباط الفتح** ، ص : 157

[324] نفسه ، ص : 158

[325] Basset, Henri," Fête De Lala Ksabah" **Revue Franc- Maroc** N°6 15 juin 1917 P 35

[326] السويسي، **تاريخ رباط الفتح**، ص : 159

[327] Basset, Henri," Fête De Lala Ksabah", **Reuve Franc- Maroc** op,cit P 36

[328] Basset, Henri, **Fête De Lala Ksabah** op,cit P35

خطيبات صغيرات و أمهاتهم بشارع لعلو بالرباط ينتظرن بداية حفلة لالة كسابة [329]



← **<u>الجلوس على سطوح المنازل</u>** : هي من العادات التي تتميز بها نسوة مدينة الرباط حيث يجتمع النسوة في سطوح المنازل خاصة في الأيام المشرقة ، فيجعلون من تلك السطوح أماكن للترويح عن النفس و شرب الشاي و تبادل الحديث [330]

← **<u>عادات اللباس</u>** : اشتهر الرباطيين بلباس البرنوس خاصة في الحفلات الخاصة ، كحفلة لالة كسابة السابقة الذكر ، حيث يلبس فيها الأطفال برانس حمراء أو خضراء ، أما الفتيات فيرتدين قطعة كبيرة من القماش تغطيهن بالكامل باستثناء فتحة صغيرة لترى بها الفتاة الطريق و تسمى بالحايك [331] و هو لباس منتشر في المغرب عامة مع بعض الاختلافات من جهة لأخرى

← **<u>عادات أخرى :</u>** بالإضافة إلى هذه العادات التي كان ينفرد بها أهل الرباط فقد كانت لديهم عادات أخرى يشتركون فيها مع باقي المدن المغربية ، وبعض البلدان الإسلامية ، نظرا للطابع الديني الذي تقام فيها هذه العادات ، كحفلة العقيقة و الختان و حفلات ختم القرآن أو الحذقة التي تقام على شرف من استكمل حفظ كتاب الله و تسمى بإخراج السلكة، ، حيث عرفت مدينة الرباط بأنها مدينة أهل الورع و الفضل و العلم ، كما تشير إلى ذلك الأسماء التي كانت تطلق على بعض الأحياء ، كحي بدعية و مكّانة ، التي كانت تطلق على الحي الممتد من سيدي فاتح إلى درب كُناوة ، كناية على حرص أهل هذه الأحياء

---

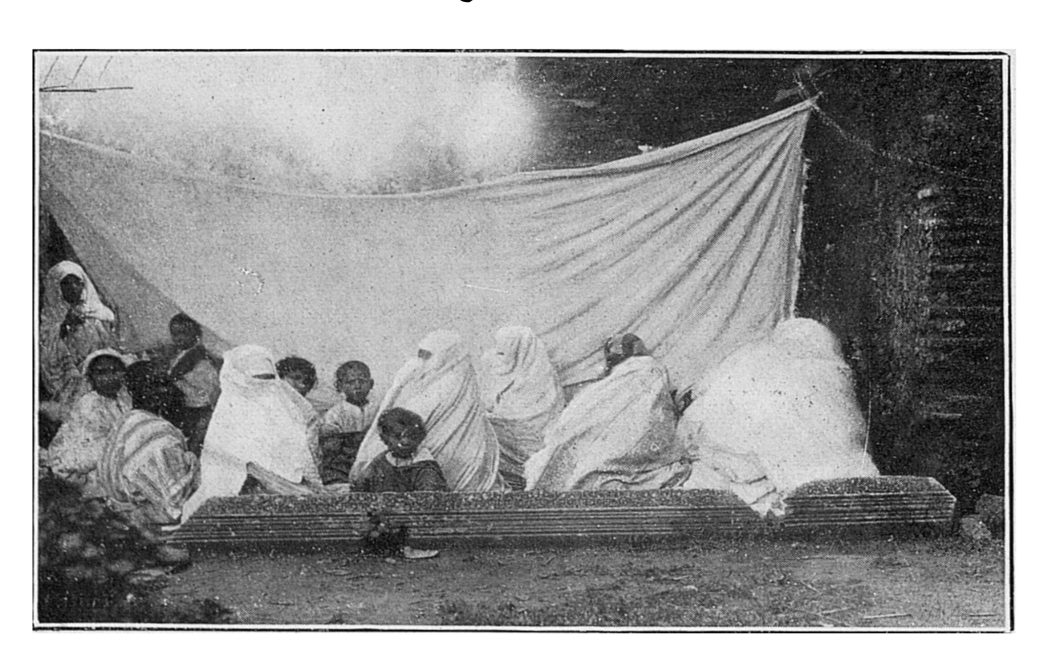
[329] Ibid, P :36

[330] السويسي ، **تاريخ رباط الفتح** ، ص : 160

[331] Basset, Henri , "Fête De Lala Ksabah" , **revue Franc- Maroc** op,cit , P :35

على إقامة الصلاة في وقتها ، فيرتقبون حلول وقت الصلاة معتمدين في ذلك على ساعتهم الصدرية [332] رغم هذا الثناء على ورع أهل الرباط إلا أنه كانت لديهم إحدى العادات المبتدعة و هي زيارة الأضرحة للتبرك و قضاء الحوائج كزيارة ضريح لالة شالة أو ضريح سيدي اليابوري الذي كان يطلق عليه حامي الصياديين و يقع على شاطئ مدينة الرباط كما توضح ذلك الصور التالية:

نساء مجتمعات حول ضريح لالة شالة[333]



ضريح سيدي اليابوري (حامي الصيادين) بالرباط [334]



[332] بوشعرا مصطفى ، **الإستيطان و الحماية** ، ص : 751

[333] Mission sientifique au maroc ," rabat, salé,challeh" , **Reuve France-maroc** N°9 15 septembre 1917 , P: 6

[334] Malka (Jean Pierre), **Rabat D'hier Et D'aujourd'hui** , op. cit. p : 126

خلاصة :

تعددت و تنوعت العادات المميزة للمجتمع الرباطي ، و التي بلورتها ساكنة المدينة المتعددة الروافد و الثقافات و الديانات ، لكن رغم هذا الاختلاف فقد استطاع المجتمع الرباطي أن يكون ثقافة واحدة تتميز عن غيرها من الثقافات المغربية بباقي المدن ، لكن هذه العادات و التقاليد التي تميزت بها مدينة الرباط ستتعرض لهجمة شرسة من الثقافة الغربية خاصة بعد الاحتلال الفرنسي الذي سينتدب مختلف الوسائل لغربنة و فرنسة المجتمع المغربي ككل ، فما هي هذه العادات التي اقتحمت و فرضت نفسها على المجتمع الرباطي ، و كيف ساهمت الجاليات الأوروبية في ذلك ؟.